الدكتور
محمد أبوزيد الفقى

نظرية المذخورية
أو
الفكر المستقبلى عند المسلمين

دار البيان للطباعة والنشر و التوزيع
٢٠٠٣ م

دار البيان

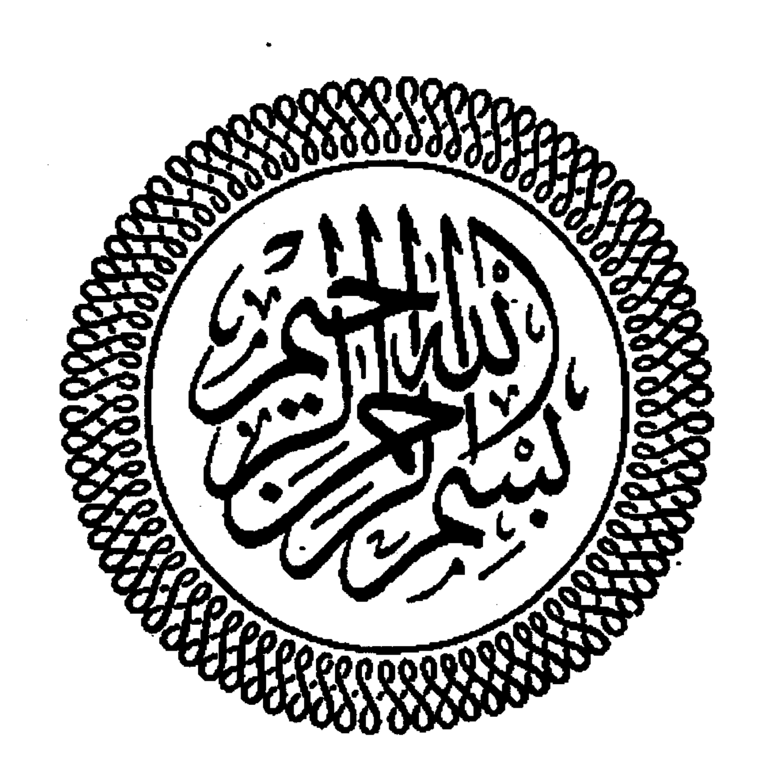
للطباعة
والنشر
والتوزيع



٤ عمارات الجبل الأخضر
بجوار نادى السكة الحديد
ووزارة المالية الجديدة
مدينة نصر
تليفاكس: ٤٨٢٢٤٨٧
ت- ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع
١٩٩٥/٢٣٤٧

الترقيم الدولى
I.S.B.N. 977 / 257 / 234 / 6


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل من يبصر النور في ثنايا الظلام.
ويعمل ليكون غد المسلمين خاليًا من الأحزان.
ليسودوا ويقودوا فهم خير الأنام

.. أهدى هذا الكتاب..

الدكتور

محمد أبو زيد الفقى

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الهادى الأمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، وعلى من نهج نهجهم وسار على دربهم إلى يوم الدين.

وبعد....

فلعل أول ما يلفت نظر القارئ العربى هو عنوان هذا الكتاب «نظرية المذخورية» أو الفكر المستقبلي عند المسلمين وهى مشتقة من الذخر أى ادخار الشىء إلى المستقبل، ولعلها لهذا المعنى توازى كلمة «الاستراتيجية» عند الغرب وإن لم توازيها، أو تؤدى معناها، فليكن لنا ـ كمسلمين ـ منهاج خاص، يعالج قضايا ومستقبل المسلمين؛ لأن المكتبة الإسلامية والعربية، تحتاج إلى إضافات هذا النوع المفيد بعد أن أضحت حبلى بآلاف الكتب التى تجعل من الحديث عن المستقبل شيئًا مكروهًا، ومناقضا للإيمان عند فريق، ومجافيًا للتعليم عند فريق آخر.

والذى ينظر فى أحوال أمتنا الإسلامية وفى ثقافتها، لعله يفجأ بأنها أمة لا تعمل للمستقبل بمعناه الحقيقى، وليس فى ثقافتها شىء يساعدها على ذلك، وأدى ذلك مع تراكم الأحداث إلى أن تفقد الأمة الإسلامية صدارتها وريادتها ـ وإن لم تنتبه لذلك ـ فسوف تفقد هويتها فى يوم من الأيام.

وعندما ينتشر فكر المذخورية بين المسلمين لا أخالنى مغاليًا إن قلت إن هذه الأمة – ستبصر فجرها الصادق، وستعود إلى مجدها التليد؛ لأنها ستعود إلى منهاج طبقته فى يوم من الأيام فسعدت به، وأسعدت معها أمما كثيرة.

وقد ضَمَّنْتُ هذا الكتاب دراسة عن الفكر المستقبلى عند المسلمين، وسوف يجد القارىء فيه أفكاراً لم يألفها، ولم يتعارف عليها قبل ذلك، رغم أنها من صميم المشروع الإسلامى الكبير، وقد اشتمل هذا الكتاب على ثلاثة فصول. الأول: عن المستقبلية فى القرآن ، والثانى:عن المستقبلية فى السنة الشريفة، والثالث: عن المستقبلية عند صحابة رسول الله ﷺ.

وإن كنت أشعر بعظيم الحمد والشكر للحق سبحانه وتعالى ، إلا أنى أبصر تقصيرى، ولا أدعى أننى وصلت إلى نهاية البحث فى نظرية المذخورية، ولكن يسعدنى أننى أشرت إلى الطريق...

دكتور

محمد محمد أبو زيد الفقى

تمهيـــد

يتطور العالم المعاصر بسرعة كبيرة، وتتقدم بلاد كانت إلى عهد قريب ضمن الدول المتخلفة، ولا يدخل الدين كعامل حاسم فى هذا التقدم، ويقف أصحاب العقيدة الصحيحة فى حيرة - ترى ما الذى جعلهم يتخلفون ويتقدم غيرهم؟ وهم حملة لواء الدين الوحيد الصحيح فى العالم وأصحاب الرسالة الخاتمة، وأحيانا يعودون إلى دينهم فيجوِّدون فى أداء شعائره، ومع ذلك يبقون فى مرحلة الانتظار، ولا يشاركون فى دفع الحضارة الإنسانية إلى الأمام، وأحيانا يعتذرون عن عجزهم هذا بأنهم من أهل الآخرة، وأن الدنيا ملعونة وغرورة، وأن الفقر شعار الصالحين. ولكنهم وهم يرزحون تحت وطأة الفقر والعجز لا يستطيعون صبراً على هذه الأطروحات، ومن ثم يعودون إلى موقف التساؤل من جديد:

ما الذى ينقصنا لكى نتقدم مثل غيرنا؟

ولحل هذه الإشكالية فى ذهن المسلم المعاصر لا بد أن نعود إلى الهدف من خلق الإنسان عمومًا، فإذا ما وصلنا إلى الهدف من ذلك الخلق علمنا أنه الخلافة - أى خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض لقوله تعالى:-

﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ الآية[1]، ولعل أكبرهدف لهذه الخلافة هو استعمار الأرض : طالما أنها خلافة فى الأرض، وقد حسم هذه الفرضية قوله تعالى :

(١) من سورة البقرة: من الآية ٣٠.

﴿...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾[1] الآية.

وعلى هذا فتكون مهمة تطور الحياة وإثراء الحضارة الإنسانية واقعة على عاتق الإنسان أولا وأخيراً، وهذا ما يستفاد من مصادر الإسلام الصحيحة بعيداً عن فهم الناس لهذه المصادر، وهذا الهدف وهو استعمار الأرض وتنفيذ مشروع الله تعالى فيها، يسلمنا إلى الهدف الأكبر وهو رضا الله سبحانه وتعالى عن الإنسان بعد أن ينجح فى مهمته التى استخلفه الله تعالى فيها، ورضا الله سبحانه وتعالى عن الإنسان يعنى أنه نفذ مراد الله تعالى فى الأرض، أما فهم كثير من المسلمين بأن الهدف من خلق الإنسان هو العبادة لقوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2] الآية.

فهو فهم سليم فى معناه العام، ولكن الخطأ يقع من المسلم فى فهم «العبادة» فى الآية الكريمة، ففى حين يظن أنها تؤدى بالقيام بالشعائر الدينية، والإكثار من ذكر الله تعالى تلفظًا، وحفظ القرآن الكريم، إلا أنه بذلك يؤدى جانبًا منها فقط، ولم يتجاوز الإطار الخارجى للعبادة الحقة وهو تنفيذ الخلافة، والدين هو الإطار السليم.

والصراط المستقيم الذى يوجه الجهد البشرى نحو الحق والعدل، والخير، ومن غيره يؤدى الجهد البشرى إلى فناء الحياة ولا يؤدى إلى

(١) من سورة هود : من الآية : ٦١.

(٢) من سورة الذاريات : الآية رقم ٥٦.

تقـدمها وازدهـارها، ومـن هنا تـأتى أهمـية الدور الـذى يلـعبه الـدين - الصحيـح - فى تقدم الحياة، والـوصول بمهمة الإنـسان فى الأرض إلى غايتـها، ولو كانت الـعبادة هى أداء الـشعائر من صـوم ، وصلاة ، وحج، وزكاة، أو لو كانـت هى التسبيح والتـحميد[1]، والتكـبير فقط، لـدخلت المـلائكة عـليهـم السلام فـى هذه الآيـة؛ لأنهم لا يـفْتُرون عـن ذكر الله تعالى، ولايَـفْتَرونَ عليه، ولـكن العبادة فى الآية بـمعنى العبـادة والعمل، العبـادة لله تعالى لأداء حق العـظمة والقهر، والـعمل فى الأرض لتنـفيذ مشروع الله تعـالى فى أرض الله تعالى، وهـذان الهدفان لصالـح الإنسان، والله غنى عن العالمين.

ويحرص الحق سبحـانه وتعالى على العمل الدنيـوى «عمل الخلافة» حرصًا لو فقهه الـمسلمون لسادوا العالم أجمع، وعممـوا قيادة الخير فى كل مكان، فـهو ـ سبحانه ـ يطلـب من كل مؤمن إذا سمع الـنداء أن يأتى لصلاة الجمعة، فإذا قضيت الصلاة يأمره بالانتشار فى الأرض، لتحصيل المنافع وتـحقيق الخلافة، وإذا سافر المـؤمن لقضاء حاجة دنيويـة تتعلق بمهمته فـى الأرض، أذن له الحق تعالى فى قصر الصـلاة، وفى الفطر فى نهار رمضـان ـ طالما أنه تجاوز مـسافة القصر، وكل هـذه الأمور توضح

(١) لا تظن أنى أُهَوِّنُ من شأن العبادة والذكر لأنهما القوة الدافعة لكل جسد فى الحياة، ولكن التفرغ لهما، ترك للحياة وهو ما تدور حوله المناقشة.

مهمة الإنسان فى الأرض، وأنها للاستعمار والتطوير ودفع عجلة الحياة [1].

وكما يُسأل المسلم الفرد عن تحقيق الخلافة من زاويته الشخصية، فكذلك تُسأل الأمة عن تحقيق الخلافة بمجموع أفرادها، أى أن العبد سيسأل عن مجده فى الدنيا ومجد الإسلام فى آن واحد، ولذلك تنقسم مجهودات الأفراد فى تطوير الحياة إلى بعضها وتشكل مجهود الأمة العام.

ومن هنا يتضح لنا،أن الذى يعمل للعبادة فقط يؤدى جانبًا واحدًا من حق الله تعالى ، وأن الذى يعمل للدنيا فقط يؤدى جانبًا واحدًا من حق الله تعالى أيضًا، وليس لأحدهما فضل على الآخر؛ لأنهما فى التقصير سواء، والمؤمن المقبول هو الذى يريد فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، أي يريد أن يتفوق فى العملين معًا، وأن يصل إلى الاقتراب من التجويد والكمال فيهما.

و من يتصفح مؤلفات بعض العلماء وخاصة الذين كتبوا فى فترات الجزر والتراجع للحضارة الإسلامية، سيجد عند هؤلاء العلماء دعوة للتجافى عن الدنيا والقعود عن العمل، ولا شك أن هذا من إفراز الهزائم المتكررة على الأمة الإسلامية، ومع ذلك فما زال المصدران الصحيحان موجودين بين أيدينا ينطقان برؤية الإسلام الصحيحة للخلافة والحياة، وللدنيا والآخرة.

(١) وليس معنى ذلك التقليل من شأن العبادة لأنه لا يقبل العمل الدنيوى إلا بقبولها أولا، فنجاح الإنسان فى دينه ودنياه يوصله إلى غايته، وفشله فى أى منهما يجعله بعيداً من القبول.

وإذا ترسخت فكرة الخلافة فى أذهاننا، فـإنها تستلزم النظر إلى خلافة الإنسان كـكل وليس الإنـسان الفرد، وهذا بـالتالى يـقودنا إلى أن مـهمة الإنسـان- أى إنسان - لا بـد أن تكون هـادفة، أى أنه يـسعى إلـى هدف معيـن يترسم فى الوصـول إليه خطوات مـعينة، هذه الخـطوات لا بد أن تكون محسوبة مدروسة، حبلى بالأسئـلة، ومحملة بالإجابات عليها. هذا من ناحية الإنسان كإنسان، وأما من ناحـية المسلم فقد وضح الله تعالى له هدفه، وتركه يخـطط للوصول إليه، فهدف المسلـم : «أن تكون كلمة الله هى العليا»، ولا يمكن أن تكون كلمة الله هـى العليا لمجرد نطقها، بل لا يتأتى ذلك إلا بتفـوق المسلم وعلوه على غيره من العـالمين، وللوصول إلى هذا الـهدف الكبير لا بـد من المرور بكـثير من الأهداف التـى تأخذ الكـثير مـن جهد وعـرق، وعلم وعـمل المـؤمن، ولا يتـحقق كـل ذلك بالأمانى والأحلام، وأساطير البطولة التى برع فى نسجها المسلمون، بعد أن انتقلت الراية من الأيدى المؤمنة العاجزة إلى الأيدى الفاجرة القادرة.

ومعرفة الهدف والتـخطيط له، هما هدفا هذه الدراسة، وطـالما أننا حددنا الهدف أن تـكون «كلمـة الله هى العليـا». فإنّ هذا الهدف لا يـتم إلا بتطـبيق الخلافـة فى الأرض والتفوق فى الـدنيا، ولعل فـى هذا إجابة على الـتساؤل الذى تصدر هذا التمهيد، وهو لماذا يتقدم الغير ويتخلف المسلمون؟.

وذلك لأن الـغير يقـوم بواجب الخـلافة من النـاحية العـملية ولـذلك يتقـدم، ولكن المسلـمين يتخلـفون لأنهـم ظنـوها خلافة عبادة، ولـيست عبادة تطوير للحياة، وتنفيذ مشروع الله تعالى فيها.

وعند البحث فى تفوق الغير وجد أنهم يتمسكون بالعمل الدنيوى ويخططون له، وتطورت هذه المسألة عندهم تطوراً عظيمًا، حتى أصبح لها علم مستقل يسمى علم «الاستراتيجية» ونقلوا هذه الفكرة أو هذا العلم من المجال العسكرى وعمموه على كل المجالات، وساد هذا الفكر فى البلاد المتقدمة صناعيًا وزراعيًا حتى كاد أن يصبح منهجا فرديًا يعم حياة الأفراد.

ولا أدعى أننى سأشرح علم الاستراتيجية بكل أبعاده، فإن ذلك يحتاج إلى تخصص دقيق وليس هذا البحث مجاله، ولكن البحث سيدور حول فكرة، هل فى النظام الإسلامى مستقبلية أو تخطيط للمستقبل وبالذات فى المجال الدنيوى؟.

وقد سميت هذا البحث بالمذخورية لترادف كلمة «الاستراتيجية» المستقبلية فى معناه العام(١).

- المستقبلية والمرحلية:

والمستقبلية أو المذخورية أو «الاستراتيجية» كلها تدور حول فكرة وضع هدف بعيد فى الزمان المستقبل والعمل على تحقيقه بشتى الوسائل، وهذه الوسائل تسمى أهداف مرحلية أو «تكتيكية»، فإذا كان هدف الأمة الإسلامية هو نشر الدعوة الإسلامية «كلمة الله هى العليا».

---

(١) هذه الكلمة مشتقة من الذخر، وهو ادخار الشىء للمستقبل ليكون نافعًا ونفيسًا، والمعنى موجود فى معاجم اللغة إلا أن الاشتقاق من عند المؤلف.

فإن ذلك لا يتم بالمقالات الأدبية، ولا بالخطب الحماسية، ولا يكون الدين فى ذاته صحيحًا، وإنما يتم ذلك بأن تتضافر جهود الأمة مجتمعة للوصول إلى هذا الهدف الكبير، فالزارع فى أرضه يبذل الجهد والعرق ويصل الليل بالنهار فى العمل، وهو يعلم أن ما ينتجه من حبوب يساعد الأمة فى الوصول إلى هدفها الكبير(١)، وهكذا الصانع فى مصنعه، والمدرس فى فصله.. وهكذا.

والاستراتيجية نقلت من معناها العسكرى وأصبحت من أسرار تفوق الأمم المتقدمة، والأمة الإسلامية تعيب على نفسها ويعيب عليها غيرها عدم وجود الهدف البعيد، وعدم التخطيط له بعد تحديده، وينقل أعداء الإسلام اتهامهم للأمة المتخاذلة إلى اتهام الإسلام نفسه كدين، ولذلك فمهمة هذا البحث هى إثبات وجود الهدف والتخطيط له فى الإسلام بصورة ليس لها نظير فى كل الأديان، السماوى منها والوضعي على السواء، وإذا كانت العلوم تبدأ أفكارًا ثم تتطور ويكون الأصل دائمًا هو الفكرة الأولى، فإن الأفكار التى طرحها الإسلام كقاعدة لهذا العلم لهى أغنى وأثرى من غيرها من الفرضيات التى وضعت فى بداية العوم أو اكتشاف العلوم.

---

(١) يساعد على فهم هذا المعنى ما يفعله اليهود حينما يأتون إلى إسرائيل، ويعملون الليل والنهار من أجل إعادة مملكة داود وتفوق شعب الله المختار.

لمحة عن الاستراتيجية:

١- يعرف «ليدل هارت» الاستراتيجية القومية أو العليا بأنها : السياسة التى تقود سير الحرب، ويستخدم تعبير الاستراتيجية العليا لشرح «فكرة السياسة خلال التنفيذ»، وإيضاح أن دورها الحقيقى هو : توجيه وتنسيق كل إمكانيات البلاد بغية الوصول إلى الهدف السياسى للحرب.

ويتعين على الاستراتيجية العليا: أن تقدر وتضاعف الإمكانيات الاقتصادية والقدرة البشرية بقصد دعم الوحدات المقاتلة، علاوة على دعم القوى المعنوية، والاستراتيجية العليا تتولى أيضًا تنظيم وتوزيع الأدوار والقوى بين مختلف المرافق والصناعة، وعلينا أن ندرك علاوة على ذلك، أن القدرة الحربية عامل واحد من عوامل الاستراتيجية التى يدخل فى حسابها قوة الضغط المالى، أو السياسى، أو الدبلوماسى، أو الاقتصادى، أو المعنوى، وكلها عوامل هامة لإضعاف إرادة الخصم.

«إن مدى الاستراتيجية العسكرية محدود بالحرب، ولكن الاستراتيجية العليا تنظر إلى ما وراء الحرب، نحو السلم الذى سيعقبها».

٢- ويتفق الجنرال «أندريه بوفو» مع «هارت» حين يعرف الاستراتيجية بقوله:

تقع الاستراتيجية الشاملة فى قمة الاستراتيجيات، وتخضع مباشرة لإرادة الحكومة ـ أى السياسة ـ وعلى هذه الاستراتيجية فهم وتحديد سير الحرب الشاملة، ويتلخص دورها فى تحديد المهمة الخاصة بمختلف الاستراتيجيات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية وتأمين توافقها.

هذا عن الاستراتيجية العليا، أما تعريف العلماء لاستراتيجية الحرب فهو كالتالى:

(أ) هى فن إعداد المعارك ووضع الخطط العامة للحملات العسكرية.

(ب) فن استعمال المعارك لتحقيق أغراض الحرب.

(جـ) هى تحضير أو تطوير خطة الحرب، وربط الأنشطة المتتابعة التى تقود إليها.

(د) وعند «ليدل هارت» هى : فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة.

(هـ) وعند «بوفر» هى : فن استخدام القوى العسكرية للوصول إلى نتائج حددتها السياسة.

(و) وعند «ريمون آرون» هى : قيادة وتوجيه مجمل العمليات العسكرية، أما الدبلوماسية فهى توجيه العلاقات مع الدول الأخرى على أن تكون الاستراتيجية والدبلوماسية تابعتين للسياسة.

ومن هذه التعاريف يظهر لنا الآتى:

أن المهمة الأساسية للاستراتيجية القومية (العليا) هى : تكييف مختلف الوسائل فى حدود اتجاهات السياسة العامة للدولة، والإمكانيات المادية والبشرية المتوافرة لتحقيق الأغراض السياسية للدولة.

أما الاستراتيجية العسكرية فهى : إعداد ووضع الخطط العامة التى تحدد طريق استخدام القوات المسلحة، لتحقيق أغراض السياسة العسكرية من خلال تنفيذ عمليات حربية- محدودة أو واسعة النطاق- ووضعها فى إطار تخطيطى مفصل(١).

ولكى لا تختلط المعلومات فى ذهن القارئ نحدد معانى بعض المصطلحات المستعملة فى هذا المجال:

١- الغرض : هو الغاية النهائية أو المقصود الرئيسي.

٢- الهدف: هو غرض عملى محدود يجب الوصول إليه.

٣- سياسة: مجموعة مبادئ وقواعد واتجاهات عريضة تسهل الوصول إلى الأغراض المطلوبة.

ومن هنا يتضح اختلاف الغرض والهدف والسياسة عن الاستراتيجية، وذلك لخلوها من التخطيط وهو أهم ما يميز الاستراتيجية عليا كانت، أو عسكرية.

ولكى تنجح الاستراتيجية أو المستقبلية أو المذخورية، فلا بد لها من العمل الجاد الذى يرى فيه المؤمن أنه يقربه إلى الله تعالى، وأَنَّه يدخل ضمن الهدف الأساسى من خلق الإنسان فى الأرض.

وأى أمة تريد أن تعصم نفسها من الفناء لا بد لها من إسهامات حضارية، أى إضافات تعمل على تطوير الحياة ودفع مشروع الحق تعالى إلى الأمام.

---

(١) نقل بتلخيص من كتاب تخطيط المشروعات الصناعية للدكتور مهندس محمد فاروق الهيثمى ص ١١٠، وما بعدها، ط. دار النهضة العربية ١٩٤٩م.

إسهامات الأمة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية:

وإسهام الأمة ـ أى أمة ـ فى الحضارة - هى عمارة الأرض أو قيام الحضارة، وهى من مهمات الإنسان الأساسية الكبرى، وقد قام بها البشر جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة، وكلما تعبت أمة تلقت الراية أمة فتية، وقد تضافرت جهود الأمم، وراح اللاحق يبنى على جهود سلفه ويزيد ويطور.

فمن أراد العمران فعليه أن يتعلم علوم عصره كلها، حتى قال أكثر الفقهاء فى «فرض الكفاية» إن الأمة كلها تصير آثمة إذا وجدت صنعة أو علم، وليس فى الأمة من يعرفه أو يمارسه.

و يقول الأستاذ سيد قطب: لقد غابت الأمة الإسلامية عن الشهود وعن الوجود دهراً طويلا، وقد تولت قيادة البشرية أفكار، وأمم أخرى، وتصورات أخرى، وأوضاع أخرى فترة طويلة، وقد أبدعت العبقرية الأوروبية فى هذه الفترة رصيداً ضخمًا من العلم، والثقافة، والأنظمة والإنتاج المادى، وهو رصيد ضخم تقف عليه - ولا تفرط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة، وبخاصة أن العالم الإسلامى يكاد يكون عاطلا من هذه الزينة(١).

وبعد أن قدم المؤلف فى الفترة السابقة صورة للمأزق الذى أُدخلت الأمة الإسلامية فيه بتكاسلها وقعودها، وكيف أن الحياة تتمسك بمن يطور الحياة، ويدفعها للأمام ـ وهذا هو سر سيادة الأوروبى فى العصر

(١) الأستاذ سيد قطب : معالم الطريق ،ص ٨.

الحديث إنه ساد بعلمه وعمله ورؤيته الواضحة للمستقبل له ولغيره - وهذه للأسف حقيقة لا يمكن إنكارها.

وعن إسهامات الأمة الإسلامية يقول الدكتور نعمان عبد الرازق السامرائى: «لقد مررنا بمواقف من هذين الهدفين «العبادة والعمارة» يمكن تفصيلها على الوجه التالى:

١- فى الجاهلية لم نكن نعبد الله ولا نساهم فى الحضارة باستثناء ما قدمه أهل اليمن ومصر والعراق من مساهمات معمارية.

٢- فى الإسلام عبدنا الله تعالى حق العبادة، ثم رحنا نساهم فى بناء الحضارة حتى حملنا الراية بجد وجدارة، وراح العالم يقتبس منا، وينقل عنا ، وقد شكا قسس ورهبان مر الشكوى من تعلم أبنائهم فى الغرب لغتنا وعلومنا.

٣- بعد قرون اكتفينا بالعبادة وأهملنا الحضارة، وساهم التصوف والنكبات السياسية وغيرهما فى هذا التوجه، ثم مع الأيام دخل العبادة الكثير من الدخن، حتى لا نجد مسجداً كبيراً يخلو من قبور، وشاعت زيارة القبور، والتبرك بها، ودعوة أصحابها، وطلب شفاعتهم، وهكذا صرنا مبتدعين فى العبادة مقلدين فى الحضارة، وكان المطلوب العكس (الاتباع فى العبادة، والإبداع فى الحضارة).

٤- لقد أهملنا الحضارة حتى لم تعد من بين همومنا ولا من

تطلعاتنا، وضاقت دائرة العلم وراحت معاهدنا تضيق يوما بعد يوم من العلوم المفيدة، والتى خلت من الإبداع، تخلو من الجدة وتبعد عن الحياة.

٥- أعقب ذلك مرحلة أهملنا حتى العبادة، فصار الفرد منا بعيداً عن معانيها (الواسعة والضيقة) ويكتفى أن يقال عنه إنه مسلم، دون أن يتكلف شيئًا، وساعد على ذلك رواج فكر المرجئة، حتى صار جمهور الأمة منها دون أن يدعوه أحد إليها.

فكل مسلم يدعى أنه عامر القلب بالإيمان، وهذا فى نظره يكفى، وقد ينكشف الأمر فيدعى طهارة القلب، وعفة اللسان، وأنه أفضل من كثير ممن يمارسون العبادة.

إن الأمة إذا كانت قوية تطلعت إلى الأمور الكبيرة فإذا ضعفت تحاول فلسفة ضعفها وهزائمها، لذلك كانت أفكار المرجئة والمتصوفة أفضل فلسفة تناسب هذه المرحلة..

٦- أخيراً وبعد الصحوة الإسلامية رجعنا للعبادة مرة ثانية، ولكن ما زال جمهور الأمة غائبًا عن الاهتمام بأمر الحضارة.

فليس من الحضارة أن تركب سيارة لا تعرف عنها سوى القيادة، وليس من الحضارة أن تأكل فاكهة أوروبا وأمريكا، ولكن أن تساهم فى علوم العالم وصناعته، وعلى رأس كل ذلك أن تساهم فى تقديم فكر

متميز لا يكون عالة على أحد ولا تبعًا لأحد[1].

فى الفقرات السابقة قدم المؤلف تسلسلا لإسهامات الأمة الإسلامية فى الحضارة، وبيَّنَ الربط الشديد بَيْنَ «العبادة والعمارة»، فى أول عهد العرب بالإسلام وكيف تخلف ذلك الآن، ويعتب على شباب الصحوة الإسلامية أنهم عادوا للعبادة ولم يعودوا للعمارة، وهناك خطورة فى استهلاك منتجات الحضارات الأخرى. ويرى الكاتب مالك بن نبي : أن لكل حضارة منتجاتها فهى متولدة عنها، ولكن لا يمكن صنع حضارة بمجرد تبنى منتجاتها. فشراء ما تنتجه الحضارة الغربية من كافة دول العالم لم يجعلها تكسب حضارة، فشراء المنتجات هو كسب وتحصيل للهيكل والجسد، وليس للروح، والحضارة ليست تكديس منتجات، بل هى فكر ومثل وقيم لا بد من كسبها أو إنتاجها[2].

والفكر الذى يقصده «مالك بن نبي » هو فكر ومثل وقيم العمل، والالتزام والتخطيط والنظر بعمق للمستقبل، والعمل على حل مشكلاته، هذه هى معطيات الحضارة كما يراها مالك بن نبي، وليس استهلاك منتجات الحضارة هو الذى ينقلها إلى الآخرين.

وقد يقول بعض المسلمين إنه يريد الآخرة ويكفيه فى ذلك العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة، والجواب: نعم قد يصل المسلم إلى الجنة

(١) نقل بتلخيص من مجلة البيان والتى تصدر فى لندن، العدد ٤٢، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ٤٢.

عن هذا الطريـق، ولكنه يخرج من الدنـيا ولـم يقدم لها شيـئًا ومن غير أن يسهم فى الحضارة، وعلى النقيض من ذلك تجد إنسان الحضارة الغربية فهو لا يـؤمن بالله تعالـى ، وإن آمن به فهو يعـزله عن الحيـاة؛ لأن إنسان الغرب جعـل دينه الحضارة، وجـعلها كل شىء فـى حياته، وقد قفـز بها قفـزات كبيرة ولـن يستـطيع أحـد تجاوز ذلك، أو جـحوده، ولن تـفرط البشرية فـى منجزاتها الحضاريـة، ومع ذلك فإنسان الغرب مثـل المسلم تماما فهو قد أخذ جانبًا من مراد الله للإنسان وترك جانبًا آخر.

وإذا تركنا المسلم المتجه إلى الآخرة والغـربى المتمسك بالدنيا ويصنع الحضارة، فسوف نـجد ملايين من البشر تدب عـلى هذه الأرض لا تعرف الله تعالى ولا تعبده، ولا تساهم فى الحـضارة من قريب أو من بعيد، وفيهم وفى أمـثالهم يـصدق قول الله تعـالى : ﴿أولئك كـالأنعام بل هـم أضل﴾. وأقبح من الكل تلك الملايين من البشـر التى تعجز حتى عن إطعام نفسها، وتطالب الآخرين أن يطعموها ويداووها ويبنوا لها المساكن.

وفى العالم اليوم ملايين من الكسالى ليس لديهم الاستعداد لعمل شىء، حتى الخـبز تريده جاهزاً وربـما مدهونا بالـعسل، والأمة الإسلاميـة مدعوة بكل جد وقوة لعبادة الله تعالى كمـا أمر، وعدم الشرك مهما صغر، وكذلك المساهمة فى الحضارة دون أنْ تفلسف كسلها وعجزها وتخلفها.

إن العالـم يموج بالأقوياء، ومـن لا يكون قويًا بـفكره واستقلالـه فإنه يعيش على الهامش، كما تعيش بعض القوارض، وستظل الدنيا محكومة بالأقـوى، فكراً، وإنـتاجا، وتحـضراً، ولن يـكون فيـها مكان لـلكسـالى

المتواكلين، ولن يجدوا خبزاً جاهزاً، ولا سكنا جاهزاً، ولا قبراً جاهزاً[1].

ولا يقف التدهور الذى ينتج عن ترك المساهمة فى الحضارة عند الجانب الاقتصادى فقط، بل يتعداه إلى هوية الأمة نفسها، فمع تخلف الأمة وتقدم غيرها، تبدأ الذهنية الإسلامية فى الميل ناحية الذين يصنعون الحضارة، وكم من أُناس خصموا من حساب الدعوة الإسلامية فى الميل ناحية الذين يصنعون الحضارة، وكم من أُناس خصموا من حساب الدعوة الإسلامية بسبب انبهارهم بالحضارة الغربية: (ذلك أن اصطدام المسلمين بالحضارة الغربية الأوربية قد تم فى مرحلة كان الضعف العسكرى والسياسى غالبين فيها على المسلمين، فكان طبيعيًا أن يترك ذلك بصماته واضحة على الموقف النفسى تجاه الحضارة الغازية، فاستقر فى وعي أكثر المسلمين أن الحضارة الغربية بمكوناتها العقلية وبنتاجها الفكري الذى استطاعت به تسخير الكون وتعميره، مرحلة أكثر تقدمًا من كل ما عرفته البشرية، وأن الاتجاه إليها - بكل مكوناتها - تحرك نحو الأفضل، وأن متابعة أساليب الحياة وأنماط السلوك السائدة فى الغرب هو معيار التقدم وضمانه على السواء، واستقرار هذا الموقف النفسى، وانتقل من جيل إلى جيل)[2].

هذا هو الموقف النفسى الذى يخشاه كل من يعمل فى حقل الدعوة

---

(١) المصدر السابق : نقل بتصرف ص ٤١، ٤٢.

(٢) د. أحمد كمال أبو المجد: حوار لا مواجهة ص ٦٧ جـ١ كتاب العربى ١٩٨٥.

الإسلاميـة، أن نقف مبـهورين بحضـارة الغرب، إنه مـوقف يبعـث على الحزن والأسى، فكيف نترك إسهاماتنا فى الـحضارة البشرية ودييننا يحثنا على التخطيط والعمل، ولكننا فهمناه فهما خاطئًا.

وفى الصفحات التالية سيتضح مصداق ذلك، وأننا لو نفذنا ما في ديننا من حث علـى التخطيط والعمـل، وفهمنا رسالتى الإسـلام والإنسان في الحـياة كمـا فهـمها أسـلافنا لـسُدنا الـعالم كـما سـادوا، ولم نصـل إلى المـوقف الذى وصلـنا إليه الآن، لا نـعمل لـعمارة الأرض، ولا نخـطط لتـطوير الحـياة، بل إن كسـلنا وتخـاذلنا قـد صادر عليـنا العمـل، وجاء إعجابنا بالغرب فصادر[1] علينا الأمل.. وأمسينا بلا أمل ولا عمل.. فهل نعود؟.

هذه الصفحات أمل فى ذلك...

***

---

(١) صَادَرَهُ على كذا : طالبه به فى إلحاح. (المعجم الوجيز صدر ، ص ٣٦١ ط. مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٩٩).

الفصل الأول

الفكر المستقبلي في القرآن الكريم

من المفارقـات المثيرة أن من يبحث عـن الفكر المستقبـلى فى القرآن الكريم، يجد تناقضًا غريبًا بين دلالة النص القرآنى على العناية بالمستقبل وبين فهم علماء المسلمين لهذه الدلالة(١).

ففى حين أن الـقرآن الكريم يهتم اهتمـاما بالغًا بالمستـقبل، ويحرض المؤمنين على الاهـتمام به، نجد أن علماء المسلميـن وخاصة المفسرين يجنحون إلى ترك الحديث عن المستقـبل، على اعتبار أنه بيد الله سبحانه وتعالى، ويمنعهم إيمانهم هذا من البـحث والدرس للفكر المستقبلى فى القرآن الكريم.

والقـرآن الكريـم يعرض الـفكر الـمستقـبلى بـأساليـب شتى: بـالأمر المباشر أحيانًا، وبالأسلوب القـصصى ووضع المقدمات فى أحيان أخر، وسنأخذ بعض المواقف التى تعالج هذا الموضوع.

الموقف الأول: الأمر المباشر:

يأتى الأمر الـمباشر فى قولـه تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

من النظرة الأولى إلى هذه الآية الكريمة، يتبادر إلى الفهم عناية القرآن الكريم بالغد- أى المستقـبل- سواء كان فى الدنيا أو فى الآخرة، والذى

(١) عند الكلام عن أثر علم العقيدة على الفكر المستقبلى، سيزداد الأمر وضوحًا بالنسبة لهذه النقطة من البحث.

(٢) من سورة الحشر : الآية ١٨.

يفيد هذا المعنى من الآية الكريمة تنكير لفظة «لغد»؛ لأن تنكير لفظة ما يفيد عمومها وشمولها كما تنطق بذلك قواعد اللغة العربية، ولو أخذت هذه الآية بهذا المعنى قديم لكان لها أكبر الأثر فى تفوق الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، ولكن لأسباب كثيرة- سوف تتضح فى ثنايا هذا البحث ـ أصر كثير من المفسرين القدامى والمحدثين على جعل «الغد» هو يوم القيامة، وهذه بعض النماذج التى تبرز رأيهم فى «الغد».

- ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾. يعنى يوم القيامة، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد، وقيل : ذكر الغد تنبيهًا على أن الساعة قريبة. كما قال الشاعر:

«فإن غدًا للناظرين قريب»(١).

وقال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلها كغد، ولا شك أن كُلَّ آت قريب، والموت لا محالة آت، ومعنى ﴿ما قدمت﴾ : يعنى من خير أو شر. ﴿واتقوا الله﴾ أعاد هذا تكريرًا كقولك: اعجل اعجل. ارم ارم. وقيل التقوى الأولى فيما مضى من الذنوب، والثانية اتقاء المعاصى فى المستقبل(٢).

---

(١) فى فوائد الآل أن قائل هذا البيت هو قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر، ولفظ البيت:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى   فإن غدًا للناظرين قريب

(٢) الإمام القرطبى. الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٤٣ط دار الشام للتراث.

- والغد يوم القيامة: سماه باليوم الذى يلى يومك تقريبًا له. وعن الحسن: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد، فإن قلت: ما معنى تنكير النفس والغد؟

قلت: أما تنكير النفس: فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، وأما تنكير الغد: فلتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قيل لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: «وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا» (١).

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾. أمر بتقواه، وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر.

- ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾. أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم ميعادكم وعرضكم على ربكم، واتقوا الله تأكيد ثان(٢).

- ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾. وهو تعبير ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه، ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته، ويمد بصره فى سطورها كلها، يتأمل وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته لينظر ماذا قدم لغده فى هذه الصفحة، وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف، ومواضع نقص، ومواضع

(١) الإمام الزمخشرى. الكشاف ٤/ ٨٦، ط الحلبى ١٩٧٢م.

(٢) الإمام ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٤٢ ط دار المعرفة ـ بيروت.

تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير، وبذل من جهد، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً، ونصيبه من البر ضئيلا؟.

إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا، ولا يكف عن النظر والتقليب[1].

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ ليوم القيامة، سماه به لدنوه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرة كغده، وتنكيره للتعظيم[2].

بعد هذا السرد المتتابع لأقوال مجموعة من المفسرين الأجلاء، رأينا أن هناك شبه إجماع من القدامى والمحدثين من المفسرين على أن الغد المقصود فى الآية الكريمة هو يوم القيامة، ولكن هيهات أن نسلم لهم بهذا القول، وإن كنا نسلم لهم جميعًا بمزيد فضل وسبق.

والحجة التى تقف فى مواجهة هذه الأقوال تعتمد على العناصر الآتية:

١- أنه ليس هناك نص من القرآن الكريم، أو السنة الشريفة يخصص هذا الغد بيوم القيامة.

٢- أن القاعدة عند جمهور المفسرين أن التنكير يفيد العموم، ومع ذلك لم تستعمل هذه القاعدة فى هذه الآية كغيرها من الآيات فى كتاب الله سبحانه وتعالى.

٣- ومع وجود الإباحة فى التنكير، فلا يوجد دليل منع واحد.

(١) الأستاذ سيد قطب ٦/ ٣٥٥١ط دار الشروق ١٩٨٦.

(٢) الإمام البيضاوى ٢/ ٢٥٧ط الحلبى ١٩٥٥م.

٤- أن فعل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام يتسم بالمستقبلية والتخطيط الدقيق.

٥- وإذا كان «الغد» هو يوم القيامة فأى شىء يقدم للغد غير التخطيط للغد الدنيوى الذى يحفظ على المسلم كرامته وهيبته، ويجعل الأمة الإسلامية جديرة بالخلافة، وأن تكون خير أمة أخرجت للناس.

٦- والمفسرون حين يهملون المستقبل الدنيوى، فإن ذلك يرجع للفصل الشديد عندهم بين الدنيا والآخرة ونظرتهم للدنيا على أنها لهو ولعب، وهى كذلك بالنسبة للعابثين الذين تستهويهم لذة العيش والخلود إلى الراحة، ولكنها ليست كذلك عند أولئك الذين يطورون الحياة وينهضون بمشروع الله تعالى فى تطوير كونه الواسع الغريب.

٧- أن المفسرين يتأثرون بعلوم المسلمين الأخرى مثل علم العقيدة وغيره، وهى علوم تجعل من الإيمان بالله تعالى نبذاً لكل جهد يقوم به الإنسان.

والرأى فى هذه الآية الكريمة أنها تعنى كل غد بما فى ذلك يوم القيامة، وأنه على كل مؤمن أن يتقى الله تعالى ويهتم بكل غد مقبل عليه، لأن الغد هو ما يستطيع الإنسان العمل فيه؛ لأن الماضى لا يمكن استرجاعه إلا للذكرى فقط، والحاضر يتحول إلى ماضٍ بلحظاته المنصرمة وأهدافه المتلاحقة، فلا يبقى للمؤمن الذى يخشى الله تعالى إلا

الغد يخطط له، ويطمئن على ما قدم له، وينظر إليه بدقة ويعيد حسابه مرات عديدة، ويتوكل بعد ذلك على الله تعالى والناظر إلى منهاج القرآن الكريم يجعل الدنيا والآخرة طلبة العبد المؤمن ومجال علمه وعمله، قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١).

فهؤلاء المؤمنون يطلبون نجاحا فى الدنيا وفلاحا فى الآخرة، والقرآن يقرهم على ذلك.

٢- الموقف الثانى الغد فى رعاية الله وتوفيقه :

المواقف القرآنية التى تتحدث عن الإعداد للمستقبل والتخطيط له،ولكن المفسرين خرجوا كالعادة بالمعنى عن هدفه وأخذوه بعيداً عما وضع له، وهذا الموقف هو قول الله تعالى فى سورة الكهف:

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾(٢).

ومن ينظر إلى الآيتين الكريمتين يجد أنهما تضعان نوعا من الاحتياط

(١) من سورة البقرة: الآيتان ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) من سورة الكهف : الآيتان: ٢٣, ٢٤.

يلتزم به المسلم عند التخطيط للمستقبل، والمعنى أن ما خطط له العبد ودبره لن يكون مضمون النجاح إلا إذا شمله توفيق الحق سبحانه وتعالى، لأن فى الغد أمور قد تغيب عن العبد.

فتقديم المشيئة سيساعده على تجاوزها. هذا فى القسم الأول من المعنى، والقسم الثانى قوله : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾. والمعنى هنا: أن الإنسان مهما خطط فأحسن التخطيط؛ يجب ألا يغتر بتدبيره وينسى ربه الذى وفقه لهذا التدبير، بل ويطلب من الله تعالى نتائج أفضل مما نظم وخطط، وفهم المعنى بهذا الشكل لا يتعارض مع سبب نزولها، بل يوضحه ويشرحه، فإذا قال النبي ﷺ لليهود سأجيبكم غداً، فإنه كان ينوى البحث عن الإجابة من خلال انتظار نزول الوحى عليه.

والمسألة فيها قسمان: قسم هو تخطيط النبي ﷺ للإجابة فى الغد، وقسم يتعلق بنزول الوحى من عند الله تعالى ، فأمره بتقديم المشيئة لكى يجتمع له الأمران. تدبير الإنسان وتوفيق الرحمن، ويجب أن يكون هذا هو دستور كل مسلم فى حركته فى الحياة.

ولو فطن السابقون لهذه المعانى لدفعوا الأمة كلها إلى الأخذ بمبدأ التخطيط والإعداد للمستقبل، ولكان حال الأمة غير ما هى عليه الآن من هوان، أمة تعيش عالة على أعدائها.

وسوف أعرض عليك الآن بعضًا من أقوال المفسرين وفهمهم لهذه المعانى الكريمة:

رأى الإمام الفخر الرازى:

يقول فى تفسيره للآيتين السابقتين: قوله: ﴿**إلا أن يشاء الله**﴾. ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا، وفيه قولان: القول الأول : التقدير ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله**﴾. أى يأذن لك فى ذلك القول، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك، أنك تفعل الفعل الفلانى إلا إذا أذن الله لك فى ذلك الإخبار. القول الثانى: أن يكون التقدير: ﴿**ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدًا**﴾. إلا أن تقول : «إن شاء الله»، والسبب فى أنه لا بد من ذكر هذا القول، هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلانى غدًا لم يبعد أن يموت قبل مجىء الغد، ولم يبعد أيضًا أنه لو بقى حيًا أن يعوقه عن ذلك الفعل شىء من العوائق، فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذبًا فى ذلك الوعد(١).

(١) لا نسلم بهذا الكلام للفخر الرازى، فالقرآن الكريم مليىء بالتصريح بالفعل فى المستقبل مع عدم المشيئة مثل قول نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾. ولم يقدر المشيئة، وقول ذى القرنين ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا﴾. ويكثر فى القرآن الكريم، أما تقديم المشيئة فى هاتين الآيتين فقد جاء لأنهما يعلمان المسلمين أن التخطيط لكى ينجح لا بد أن يشتمل على التدبير من الإنسان والتوفيق من الرحمن.

والكذب منفر وذلك لا يليق بالأنبياء - عليهم السلام -، فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول: «إن شاء الله»(١).

ثم يلتفت الفخر الرازي إلى مذهبه الكلامي ويحاول إقحامه في تفسير هذه الآية فيقول:

اعلم أن مذهب المعتزلة، أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد، والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله، فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله - تعالى مغلوبة، وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع، فهو تعالى يريد الكفر من الكافر(٢).

ويريد الإيمان من المؤمن، وعلى هذا التقرير فإرادة الله تعالى غالبة، وإرادة العبد مغلوبة، إذا عرفت هذا فنقول: إذا قال العبد لأفعلن كذا غداً إلا أن يشاء الله، والله إنما يدفع عنه الكذب، إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد، فإن على هذا القول يكون التقدير: أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلانى إلا إذا كانت إرادة الله تعالى بخلافه(٣).

(١) قال موسى عليه السلام للعبد الصالح: ﴿ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً﴾ ومع ذلك لم يصبر عليه وخالفه ولم يطعن ذلك فى نبوة موسى - عليه السلام - وأنت ترى أن كلام الفخر الرازى لا ينهض له دليل، وربما اكتسب قوته من سبقه فقط، فهو هنا يلزم الأنبياء بما لم يلزمهم اللهتعاليه.

(٢) لا نسلم أيضًا بهذا الكلام للمؤلف لأن اللهتعاليقول: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾. ويقول ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ ولعل رأى المعتزلة أقرب إلى الفهم وأيسر فى الدعوة إلى اللهتعالى. أما قوله الإرادة غالبة أو مغلوبة فهو كلام الرازى نفسه، وكل ذلك من قبيل الفروض النظرية، تعالى اللهتعاليأن يخضع لفروض عبد من عبيده.

(٣) هذا الكلام الذى يقوله الإمام الرازى رفضه الله تعالى من المشركين عند الحساب فقال تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ [الأنعام: ١٤٨] فهذه الآية نص فى أن من قال إن الله تعالى لو شاء ما كفرت لا ينفعه قوله، وهذا القول من باب سوء الأدب مع الله تعالى، ومفهوم هذه الآية يناقض كل ما قاله الإمام الفخر الرازى فى تفسير المشيئة.

فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتى، فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل . أما بتقدير أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة، فإنها لا تصلح عذرًا فى هذا الباب، لأن المغلوب لا يمنع الغالب. إذا ثبت هذا فنقول : أجمعت الأمة على أنه إذا قال لأفعلن كذا ثم قال إن شاء الله دافعًا للحنث، فلا يكون دافعًا للحنث إلا إذا كانت إرادة الله تعالى غالبة، وأنه لا حاصل فى الوجود إلا ما أراد الله تعالى[1].

خرج المؤلف بالمعنى المطلوب إلى قضايا متشعبة لا علاقة لها بالموضوع المراد من الآيتين، وهو التخطيط مع طلب التوفيق من الله تعالى.

رأى الإمام الألوسى:

يقول -رحمه الله- فى تفسير هذه الآية:

﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا﴾ أى لأجل شىء تعزم عليه «إنى فاعل ذلك» الشىء «غدًا» أى فيما يستقبل من الزمان مطلقًا، وهو تأكيد لما يدل عليه اسم الفاعل بناء على أنه حقيقة فى الاستقبال، ويدخل فيه الغد بمعنى اليوم الذى يلى يومك، وهو المتبادر دخولا أوليًا. فإن الآية نزلت حين سألت قريش النبيﷺ عن الروح، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : غدًا أخبركم ولم يستثن ، فأبطأ عليه ﷺ الوحى خمسة عشر يومًا على ما روى عن ابن

(١) الإمام الفخر الرازى : التفسير الكبير ٢١/١٠٩ط.

إسحاق، وقيل ثلاثة أيام، وقيل : أربعين يومًا. فشق ذلك عليه - ﷺ -، وكذبته قريش وحاشاه.

﴿إلا أن يشاء الله﴾ استثناء متعلق بالنهى على ما اختاره جمع من المحققين، وقول ابن عطية- اغترارًا برد الطبرى - إنه من الفساد بحيث كان الواجب أن لا يُحكى خروجاً عن الإنصاف، وهو مفرغ من أعم الأحوال، وفى الكلام تقدير (باء) للملابسة داخلة على أن والجار والمجرور فى موضع الحال، أى لا تقولن ذلك فى أى حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئة الله عزَّ وجلَّ ، بأن تذكر. قال فى الكشف إن التباس القول بحقيقة المشيئة محال. فبقى أن يكون بذكرها وهو إن شاء الله تعالى ونحوه، مما يدل على تعليقه الأمور بمشيئة الله تعالى ، ورد بما يصلح أن يكون تأييد الإرادة، وجوز أن يكون المستثنى منه أعم الأوقات، أى لا تقولن ذلك فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئة الله تعالى ذلك القول منك، وفسرت المشيئة على هذا بالإذن؛ لأن وقت المشيئة لا يعلم إلا بإعلامه تعالى به وإذنه فيه، فيكون مآل المعنى : لا تقولن إلا بعد أن يؤذن لك بالقول، وجوز أيضًا أن يكون الاستثناء منقطعًا، والمقصود منه التأبيد أى ولا تقولن ذلك أبدًا، ووجه ذلك فى الكشف بأنه نهى عن القول إلا وقت مشيئة لله تعالى وهى مجهولة، فيجب الانتهاء أبدًا. ﴿فاعل ذلك غدًا﴾: أى مخبر عن قول يتعلق بالوحى غدًا غير مؤذن لأن قوله فى الغد يكون من عنده لا عن وحى، فالتشبيه فى أن الاستثناءبالمشيئة استعمل فى

معرض التأبيد، وإن كان وجه الدلالة مختلفًا أخذًا من متعلق المشيئة تارة، ومن الجهل بها أخرى، ولا يخفى أن الظاهر فى الآية الوجه الأول، وأن أمته ﷺ وهو فى الخطاب الذى تضمنته سواء مخصوصًا بالنبي ﷺ ، ولا يجوز أن يكون الاستثناء متعلقًا بقوله تعالى ﴿إني فاعل ﴾ بأن يكون استثناء مفرغًا مما فى حيزه من أعم الأحوال، أو الأوقات؛ لأنه حينئذ إما أن تعتبر تعلق المشيئة بالفعل فيكون المعنى إنى فاعل فى كل حال، أو فى كل وقت، إلا فى حال أو وقتِ مشيئة الله تعالى عدم الفعل، ولا شبهة فى عدم مناسبته للنهى، بل هو أمر مطلوب(١).

هذه هى خلاصة تفسير الإمام الألوسى لهذه الآية الكريمة، وما تبقى من تفسيره لهذه الآية مشابهة لما نقله الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآية من آراء أهل السنة والمعتزلة، ولذلك رأيت عدم نقلها خشية التكرار، ولا يختلف رأى الإمام الألوسى عن سابقه فى استخدام دلالات الكلمات استخداما فلسفيًا ممزوجًا بعلم الكلام، ومحاولة إدخال القارىء إلى ساحة لا توضح لكتابه تعالى معنى ولا تعود على القارىء بمنفعة عاجلة، أو آجلة، وربما نقلتُ لك هذه النصوص - مع التطويل - لكى تقف على حجم المأساة وتنظر عمق جذورها.

(١) الإمام الألوسى: روح المعانى ٥/ ٢٤٧، ٢٤٨ط دار الفكر بيروت- ١٩٧٨م.

روح البيان:

يقول صاحب روح البيان: قال الإمام فى تفسيره، والسبب فى أنه لا بد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلانى غداً لم يبعد أن يموت قبل أن يجىء الغد، قال أبو الليث ـ رحمه الله ـ روى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام، «لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة تأتى بغلام يقاتل فى سبيل الله».

ومن لطائف روضة الخطيب أنه سئل رجل إلى أين؟ فقال الكناسة لأشترى حماراً فقيل له: قل إن شاء الله، فقال لست أحتاج إلى الاستثناء، قال القرطبى فى تفسير هذه الآية هذا فى تدارك البشرى والتخلص من الإثم. قال فى مناقب الإمام الأعظم، روى أن محمد ابن إسحاق صاحب المغازى كان يحسد لما روى من تفضيل المنصور أبى جعفر أبا حنيفة على سائر العلماء[1].

يلاحظ على الفقرة السابقة السطحية وعدم الجدية، والتمسك بمرويات لا سند لها ولا تساعد على فهم المعنى، وكما أسلفت من قبل، فهذه التفاسير لا يكتب لها البقاء لذاتها، ولكنها تكتسب أهميتها من الزمنية والعصبية، أما الزمنية فأنها كتبت منذ زمن بعيد يُنْظَرُ إلى علمائه باحترام بالغ، وأما العصبية فلأن كثيراً من العلماء كانوا يكتبون متشيعين

(١) إسماعيل حقى البرسوى : روح البيان ٥/ ٣٤، ط دار الفكر بيروت.

لمذهب معين، وكان أنصار هذا المذهب يتشيعون لهؤلاء العلماء فى حياتهم وبعد موتهم، ومن هنا ضاع كثير من الحقائق فى زحام الزمنية والعصبية، ولكي تقف على صحة هذه المقولة، اقرأ ما كتبه هذا المفسر، ثم انظر ما نعت به من ألقاب(١).

ولذلك وصلنا فى ثقافتنا الإسلامية إلى وضع إذا أردت فيه أن تجلى موقفًا من مواقف القرآن الكريم فعليك أولا: أن ترفع من فوق المعنى الحقيقي لهذا الموقف الكثير من الأوراق والأحبار والعصبيات التى وضعت فوق هذا الموقف، لتأكد صحة الموقف الذى وضعت له مكتسبة قوتها من بعدها الزمنى، مع أن البعد الزمنى قيد على التفسير الموضوع فيه، وليس ميزة له، لأن القرآن الكريم يناسب كل زمان ومكان، وعليك ثانيًا : أن تواجه الذين تشيعوا لهذا الفكر الزمنى العصبى، وبعضهم حفظه عن ظهر قلب، ولم يفكر فيما حفظ، بل لم يحاول ذلك.

ومن الأدلة على ذلك، اختفاء الفكر المستقبلى فى التفاسير مع وضوحه ناصعًا فى القرآن الكريم.

رأى صاحب فتح القدير:

يقول: ﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدًا﴾.

---

(١) ووصف الشيخ إسماعيل حقى بأنه العالم الفاضل والشيخ النحرير الكامل الجامع بين البواطن والظواهر، ومفخر الأماثل والأكابر، خاتمة المفسرين، وقدوة أرباب الحقيقة واليقين. فريد أوانه، وقطب زمانه، منبع جميع العلوم، مولانا، ومولى الروم- الشيخ إسماعيل حقى البرسوى قدس الله سره العالى.

لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوليًا، قال الواحدى: قال المفسرون: لما سألت اليهود النبي ﷺ، عن خبر الفتية فقال : أخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحى عنه حتى شق عليه. فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله تعالى يقول: إذا قلت لشيء إنى فاعل ذلك غداً فقل إن شاء الله، وقال الأخفش، والمبرد، والكسائى، والفراء: لا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن تقول إن شاء الله، فأضمر القول، ولما حذف تقول ذلك فى حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة الله، وهو أن تقول إن شاء الله، أو وفى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقًا: وقيل : الاستثناء جارٍ مجرى التأبيد، كأنه قيل: لا تقولنه أبداً كقوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ لأن عودهم فى ملتهم مما لا يشاؤه الله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾. الاستثناء بمشيئة الله - أى فقل إن شاء الله سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة(١).

والإمام الشوكانى يميل إلى ما ذهبنا إليه فى بداية هذا الموقف، وهو : أن قول إن شاء الله تعالى لجلب التوفيق، إلا أنه يلاحظ فى كل ما تقدم من تفاسير لهذه الآية الكريمة، لم يظهر المعنى الذى يخدم المستقبل أو الفكر المستقبلى فى القرآن الكريم، وهذا ما يؤكد أن الفكر المستقبلى

(١) الإمام الشوكانى : فتح القدير ٣/ ٢٧٨ط الحلبى ١٩٦٤م.

ليس له حظ فى الفكر الدينى عند كثير من العلماء القدماء والمحدثين، رغم أن مصادر الإسلام- القرآن الكريم والسنة الشريفة- تحمل هذا الفكر المستقبلى وترعاه كما رأينا فى هذه الآية الكريمة، وسوف يتضح هذا أكثر فى تفسير الموقف التالى.

الموقف الثالث الدعوة إلى التضحية :

والموقف الثالث من المواقف التى تتحدث عن المستقبل فى القرآن الكريم بل لعل هذا الموقف يعتبر نصًا فى هذا الموضوع، وهو يؤكد ما ذهبنا إليه، وما التزمنا به، من أن التخطيط للمستقبل ليس شيئًا مستحدثًا بل هو ركن أصيل من أركان الفكر الإسلامى، وأسلوب متميز من أساليب النجاح فى الفترات التى ساد فيها الفهم الصحيح للإسلام.

يتجلى هذا الموقف فى قصة نبى الله تعالى موسى-عليه السلام -مع العبد الصالح، وقد ذهب المفسرون فيها أو فى فهمها مذاهب شتى، فمنهم من رآها تعبيرًا عن العلم اللدنى، وهو علم يولع به المتصوفة وأرباب الكرامات، ومنهم من أوقفها على أحداثها ورأى أنها شىء جدير بالتأمل وأنها تنفع للعظة والاعتبار، ومنهم من رآها تعبيرًا عن القدرة الإلهية القاهرة والباهرة فى آن واحد.

ولكن ليس من بين المفسرين من رآها رعاية للمستقبل وتأمينا له، وأنه من أجل المستقبل يجب التضحية بكل غال ونفيس، والذى منع المفسرين من فهمها على هذا النحو، هو خلو ساحة الفكر الإسلامى من

التوجه المستقبلى، أو من التخطيط لـلمستقبل البعيد، وأسباب ذلك تأتي فيما بعد فى ثنايا هذه الدراسة.

١- القصة والمستقبل:

وجه الله تعالى نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لمرافقة العبد الصالح الذى أعلمه الله تعالى علمًا نافعًا مـن لدنه، وبعد أن وقف نبي الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ على العبد الصالح، والتمس إليـه أن يرافقه ليتعـلم منه، وبعد شيء من الـتمنع، أو الرفض المعـلل بضعف عزيمة مـوسى ـ عليه السلام ـ وافـق العبد الصـالح، وبدأت الرحـلة، وواجهت الرحـلة ثلاث مشاكل قام العبد الصالح بحلها بطريقته الخاصة.

(أ) المشكلة الأولى:

انطـلق نَبِـيُّ الله تعالـى موسى ـ علـيه السـلام ـ ، والعبـد الصالـح إلى شاطىء البحر ليستـأنفا رحلتهما، وركبا سفينة وكانت سـليمة متماسكة، وليس بها عيب يُـرى، وفجأة وراكبى السفينة فوقهـا فى وسط المياه، قام العبد الصالح فخرق السفينة، ولما سأله نبي الله تعالى موسى عن سر هذا التصـرف، قال له لقد أردت أن أصنـع فيها عيـبًا لكى أصرف عنـها ذلك الملـك الطاغية الذى يـأخذ كل سفيـنة غصبًا، فـهذا التصرف من الـعبد الصالح يتـعلق بالمستقبل، وهـو مستقبل السفينـة، لأنه أراد أن يؤمن هذا المـستقـبل لهـم، لأنهم «مـساكين» ولـو صودرت سفـينتـهم لأصبـحوا

يتكففون النـاس، ومن أجل أن يؤمن المستقبل لهؤلاء الـمساكين ضحى بهذا الخرق، وبراحة راكبي السفينة وأمنهم.

(ب) المشكلة الثانية:

وجد العـبد الصالـح طفلا بريئًـا يلعب أمـام بيته فقـتله، وسبـب حزنًا عظيمًا لأبويه ولموسى- عليه الـسلام -، فالطفل فى الوقت الحاضر قرة عين لوالديه، ولـكنه فى المستقبل المـكشوف للعبد الصالح سـيرهقهما طغيانا وكفرًا، فمن أجل مستقبـل آمن لهما تم قتل الغلام، واحتج نبي الله تعالى موسى-علـيه السلام -على هذا الفعل، وأجاب العـبد الصالح بأن قتل الطفل قد تم رعاية لمستقبل الوالدين.

(جـ) المشكلة الثالثة:

وانطلقا ودخلا قريـة وطلبا الطعام فلم يجبهـما إلى ذلك أحد من أهل القرية الـتى دخلاها، وخرجا مـن القرية فوجدا فـيها عند أطرافـها جداراً على وشك السقوط، وأعاد العبد الصـالح إقامة هذا الجدار، وغضب نبي الله تعالى موسـى عليه السلام لهذا الـتصرف وسأله وهو يهم بـفراقه بناء على اتفاقهـما، فأخبره أن هذا الجدار لغلامـين يتيمين فى المديـنة وتحته كنز لهـما فلو أُخرج الكنـز فى الوقت الحاضر مـا استطاعا أن ينتـفعا به، ولكنهـما حين يبلغ أشدهـما فيتصرفان فـيه بطريقة طيبـة، ومن أجل هذا أعدت بناء الجدار رعاية للمستقبل المالى لهذين الغلامين.

تعلقت المشاكل الثلاث برعاية المستقبل، وقد تصرف العبد الصالح فيها على النـحو الذى رأيت، وكل مشـكلة اقتضت تـضحية بشىء مـن الحاضر

لصالح المستقبل البعيد، وهذا هو الدرس الذى كان يجب أن يعيه المفسرون، ولو حدث هذا لتغير حال الأمة الإسلامية؛ لأنها شديدة التمسك بما يتعلق بكتاب الله تعالى، غير أنها - أى الأمة - لم تجد فى كثير من الأحيان فى تفسير كتاب الله تعالى إلا مجموعتين من الخلافات والحكايات أما المعنى الجوهرى الحقيقي بالبحث فلم يلتفت إليه أحد، ولكى أدلل على ذلك فسوف أتعرض لبعض آراء للمفسرين فى هذا الموضوع.

الرأى الأول:

يقول الإمام الشوكانى : (ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة، أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا، ذكر الله تعالى قصة موسى والخضر تنبيهًا على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار.

وقد اتفق أهل العلم ، على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون، وقالت فرقة لا التفات لما تقوله منهم: نوف البكائي: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيًا قبل موسى بن عمران وهذا باطل)(١).

يرى الإمام الشوكانى أن هذه القصة رويت هنا لكى يفهم اليهود أن النبي ﷺ لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار، وهذا هو الهدف من رواية القصة عنده، والحقيقة أن هذا الهدف متواضع جداً،

(١)الإمام الشوكانى : فتح القدير ٣/ ٢٩٧.

بجانب عملية التخطيط لشيء يأتى فى المستقبل ورعايته، ومثل هذه التفسيرات أو الشروح لكتاب الله تعالى تصرف الذهن المسلم عن التفكير فى الأمور الهامة والمفيدة.

رأي الإمام الألوسي:

يقول الإمام الألوسي فى تفسير هذه الآيات: وذهب عبد الرازق الكاشي إلى أن الخضر عبارة عن البسط وإلياس عن القبض، وذهب بعضهم إلى أن الخضر رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذى كان فى زمان موسى ـ عليه السلام ـ، ومع وجود هذه الأقوال لا يتم الإجماع، وكونها غير مقبولة عند المحققين منهم لا يتممه أيضًا، وإجماع جماهير العلماء على ما نقل ابن الصلاح والنووى ومسلم، لكنه ليس الإجماع الذى هو أحد الأدلة الشرعية والخصم لا يقنع إلا به.

والخضر.. له علامات عند أهله ككون الأرض تخضر عند قدمه، وأن طول قدمه ذراع، وربما يظهر منه بعض خوارق العادات بما يشهد بصدقه على أن المؤمن يصدق بقوله بناء على حسن الظن به، وقد شاع بين زاعمى رؤيته عليه السلام أن من علاماته أن إبهام يده اليمنى لا عظم فيه، وأن بؤبؤ إحدى عينيه يتحرك كالزئبق.. وتعقب بأنه بأى دليل ثبت أن هذه علاماته : **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**.

وظهور الخوارق مشترك بينه وبين غيره من أولياء الأمة، فيمكن أن يظهر وليٌّ خارقًا ويقول : أنا الخضر مجازًا لأنه على قدم الخضر أو لاعتبار آخر، ويدعوه لذلك داع شرعى.

ومما يُبنَى على اجتماعه ـ عليه السلام ـ بالكاملين من أهل الله تعالى، بعض طرق إجازتنا بالصلاة البشيشية فإنها تروى عن الخضر ـ عليه السلام ـ عن الولي الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدس سره(١)..

فى الفقرات السابقة ترك الإمام الألوسى الهدف الواضح من سرد هذه القصة وهو رعاية المستقبل، والتضحية من أجل ذلك، وقد نقلت هذه الفقرات على طولها لأوضح أمرين:

الأول: خلو معظم التفاسير من الفكر المستقبلي.

والثانى: البحث عن المجهول والمبهم، وإقامة المعارك حوله وليس هذا أمراً هينًا كما يبدو للناظر لأول وهلة، بل هو أمر شغل علماء الأمة واستقطب اهتمامهم لفترات طويلة من التاريخ الإسلامى، وأحاطت بأحلام البسطاء من المسلمين الذين لا يستطيعون الوصول إلى رضا الله تعالى على قدم الخضر مثلا، والذين لم يتمكنوا من مشاهدة إبهام يده اليمنى، وهل به عظم أم لا.

كانت هذه المعارك دائرة، والعدو ينقض على أرض الإسلام من كل جانب.

رأي الشيخ إسماعيل البرسوى:

ينحو الإمام البرسوى فى تفسيره إلى الاتجاه الصوفى، ويجعل السر فى القصة هو محاولة موسى الحصول على الوحدة مع الله تعالى فيقول:

﴿ هل أتبعك على أن تُعَلّمَنِ مما علمت رشداً﴾

---

(١) الإمام الألوسى - روح المعانى ٥/ ٢٣٧ط دار الفكر ١٩٧٨م.

بإرشاد الله لك أى تعلمني طريق الاسترشاد من الله بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل، ومكالمة الحق تعالى فإن جميع ذلك كان حاصلا له، فإن قيل فهل مرتبة فوق هذه المراتب الثلاث؟

قلنا: إن هذه المراتب وإن كانت عزيزة جليلة ولكن مجىء جبريل يقتضى الواسطة، وإنزال الكتاب يدل على البعد، والمكالمة تنبىء عن الإشفيفية،والرشد الحقيقى من الله للعبد هو أن يجعله قابلا لفيض نور الله بلا واسطة، وذلك يتجلى جماله وجلاله الذى كان مطلوب موسى بقوله: أرني أنظر إليك. فإن فيه رفع الإشفيفية وإثبات الوحدة، التى لا يسع العبد فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل[1].

وهذا التفسير لا يحتاج إلى تعليق، فكلام موسى عليه السلام لله تعالى، وإنزال التوراة ووجود جبريل عليه السلام ، كل ذلك لا يقنع الشيخ البرسوى، ويثبت أن موسى عليه السلام لم يقنع بكل ذلك، بل كان يبحث عن الوحدة التامة مع الله تعالى بدلا من الإشفيفية التى يعيشها فى ظل الوحى وكلام الله تعالى.

الإمام الفخر الرازى:

بعد أن تجاوب الإمام الفخر الرازى من حجج القائلين بنبوة الخضر ورد عليها، جعل الحكمة من القصة هى تحمل الضررالأدنى لدفع الضرر الأعلى فقال : لما قرر العالم هذه الجوابات قال : ﴿**رحمة من ربك**﴾

(١) الشيخ إسماعيل البرسوى روح البيان ٥/ ٢٧٤، ٢٧٥ط دار الفكر.

يعنـى إنما فعلـت هذه الفعال لـغرض أن تظهـر رحمة الله تعالـى ، لأنها بأسرهـا ترجع إلى حرف واحـد وهو تحمـل الضرر الأدنى لدفـع الضرر الأعلى كما قررنا[1].

والإمام الفخر الرازى يـشير إشارة غير واضحة إلى التـضحية من أجل صيانة المستقبل، فيقول : تـحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، إلا أنه وإن كان لم يبرز المستقبلية فى القصة، فهو أفضل من غيره فى فهمها على كل حال.

وسوف أسـوق هنـا هذه الآيـات الكـريمـات متـرابطـة، لكـى تعـطى للـقارىء صـورة واضحة عـن أجلـى معانـيها، وهـو رعايـة المسـتقبـل والاهتمام به، قال تعالى :

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا
(٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا
(٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ
اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ
إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا
(٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ

(١) الإمام الفخر الرازى ٢١/ ١٦٢.

قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾[من سورة الكهف ٦٥: ٨٢].

وبالنظر الدقيق إلى هذه الآيات يتجلى فيها أبرز معانيها وهو رعاية المستقبل، وقد تكون هناك معان أخرى، إلا أن أبرزها وأتمها هو عناية الله تعالى بالمستقبل، وحسن التدبير له، أما كون الخضر لم يمت حتى الآن، أو دلالة الآيات على العلم اللدني أو تفوق العبد الصالح على النبي، أو رواية الخضر على أحد الصالحين صلاة على سيد المرسلين، أو كون هذا العبد نفسه هو الخضر أم لا، فكل هذه قضايا غير منتجة ولا

تؤثر فى حياة المسلمين، ولا تدفعهم إلى التقدّم خطوة واحدة، أما حسن التدبير للمستقبل فهو المعنى الوحيد الذى يستقيم مع هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهو الذى يقوي الهمة، ويدفع الأمة إلى الرقي والازدهار.

الموقف الرابع:

وقبل أن نغادر سورة الكهف نعرج على صورة أخرى للعناية بالمستقبل، فقد مكن الله تعالى لذي القرنين وآتاه من كل شيء سببا، حتى إذا بلغ بين السدين وجد أناسا مستضعفين فى الأرض، يعانون من إفساد يأجوج ومأجوج، وكان من الممكن أن يقضي عليهم ذو القرنين بحملته العسكرية الجبارة، ولكن ذلك كان يعتبر قضاء مرحليًا (تكتيكيًا)؛ لأنهم سيتفرقون فى الجبال ثم يتجمعون ويتشكلون، ويعاودون الهجوم والإفساد مرة أخرى ؛ ولذلك قرر ذو القرنين أن ينشيء لهم السد الذى طلبوه، وهو بالصورة التى بني بها عملا مستقبليًا (استراتيجيًا) خالصًا، لأنه منعهم من الوصول إلى القوم المستضعفين حاضراً ومستقبلا. قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ

إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾ [من سورة الكهف: الآيات ٩٣:٩٨].

يلاحظ أن ذا القرنين حين طُلب منه بناء السد لم يلجأ إلى الحل الوقتي (التكتيكى)، ويدمر ما يستطيع من يأجوج ومأجوج، ولم يلجأ إلى سفسطة علم الكلام، ويقول لهم إن كان ذلك مقدر فهو واقع بكم لا محالة، وهل هو مكتوب عليكم أم لا؟ وهل أنتم تتبعون المعتزلة أم الأشاعرة؟

لم يفعل من كل ذلك شيء، ولكنه اتجه مباشرة إلى الفعل والعمل الذى ينسجم مع الفطرة ويوازى دوران عجلة الحياة، بل يُعبِّدُ لها الطريق لتدور فى يسر وسهولة، اتجه إلى تأمين المستقبل والتدبير له.

رأى بعض المفسرين:

وسوف نستأنس برأى بعض المفسرين فى هذه القضية لنرى إلى أى مدى يوجد الفكر المستقبلى عندهم أولا يوجد، وتكون هذه تتمة مناسبة للموقف الرابع.

رأى الإمام ابن كثير:

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآيات يقول تعالى مخبرًا عن ذى القرنين، ﴿ثم أتبع سببا﴾ أى سلك طريقا من مشارق الأرض حتى إذا

بلغ بين السدين، وهما جبلان متناوحان بينهما نقرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل. ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت فى الصحيحين، أن الله تعالى يقول :

«يا آدم: فيقول لبيك وسعديك. فيقول ابعث بعث النار فيقول وما بعث النار؟».

فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال إن فيكم أمتين ما كانتا فى شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج.

وقد حكى النووى فى شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مَنِيّ من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليس من حواء وهذا قول غريب جداً لا دليل عليه[1].

ويستمر الإمام ابن كثير فى رد الروايات الباطلة، وموازنة الروايات الأخرى الراجحة، ولكنه لا يلتفت إلى فكرة المستقبل الموجودة فى هذا السياق، ويروى كيف أن أحد الخلفاء أرسل حملة عسكرية للتعرف على هذا المكان، وعادت الحملة بعد سنتين لتروى للخليفة العجائب، وهكذا يسير تفسير النص عند ابن كثير، أما العبرة من النص فلا تقع لها علــى أثر.

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٠٣، ١٠٤.

الإمام الزمخشرى:

«يأجوج ومأجوج» اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقرئا مهموزين، وقرأ رؤبة: آجوج ومأجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجبل والديلم. «مفسدون فى الأرض». قيل كانوا يأكلون الناس، وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئًا أخضر إلا أكلوه، ولا يابسًا إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديدًا، وعن النبي ﷺ فى صفتهم «لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قيل هم على صنفين: طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر.. وروى يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله تعالى نغفًا فى أقفائهم فيدخل[1] فى آذانهم فيموتون[2].

والإمام الزمخشرى كسابقه الإمام ابن كثير، لم يلتفت إلى رعاية المستقبل فى الآيات، بل اهتم بنسب يأجوج ومأجوج، وطولهم وعرضهم، وما كانوا يفعلون بالناس ثم اكتشف فى النهاية أنهم إذا فتحوا

(١) النغف: دود يكون فى أنوف الإبل والغنم، دود طوال سود وغير دحض ـ المعجم الوسيط ٢/ ٩٣٧١ط مجمع اللغة العربية ١٩٨٠م.

(٢) الإمام الزمخشرى: الكشاف ٢/ ٤٩٩، ٥٠٠ط الحلبى ١٩٧٢.

السد انطلقوا على الناس فلم يصلوا إلى مكة والمدينة وبيت المقدس، ولا أدرى ما الذى يمنعهم من ذلك ، والعلم عند الإمام الزمخشري لأنه صاحب هذا الاكتشاف الكبير.

رأى صاحب الظلال:

يقول : وبعد فمن هم يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان أمرهم، وماذا سيكون؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن الكريم، وفى بعض الأثر الصحيح.

والقرآن الكريم يذكر فى هذا الموضوع ما حكاه من قول ذى القرنين: **﴿فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا﴾**. وهذا النص لا يحدد زمانا، ووعد الله تعالى بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاءهم منذ هجم التتار، وانساحوا فى الأرض، ودمروا الممالك تدميراً، وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثورى، عن عروة عن زينب بنت أبى سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان عن أمها حبيبة عن زينب بنت جحش قالت: «استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه، وهو يقول : ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعيه السبابة والإبهام: قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟..قال : نعم: إذا كثر الخبث.

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن، وقد

وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية، على يد «هولاكو» فى خلافة «المعتصم» آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله تعالى وكل ما نقوله ترجيح لا يقين(١).

والأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - وإن كان يبتعد بقدر المستطاع عن الأسلوب التقليدي فى تفسير القرآن الكريم، إلا أنه ركز على خروج يأجوج ومأجوج على الناس، وهل ذلك حدث أم لا؟ ولم يتنبه إلى هذا العمل المستقبلي الاستراتيجي الذى قام به ذو القرنين، وهنا يتضح اختفاء فكر الاستقبال من تفسير القرآن الكريم عند القدماء والمحدثين على السواء، ولهذا أسباب كثيرة، سنورد بعضها فى ثنايا هذه الدراسة بإذن الله تعالى.

الموقف الخامس :

دخل نبى الله تعالى يوسف بن يعقوب عليه السلام السجن وقضى بضع سنين، وهو برىء لم يرتكب إثما ولا جرما ، ورأى الملك فى منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر يابسات، وذهبوا إلى نبيِّ الله تعالى يوسف عليه السلام فى السجن وطلبوا منه تأويل الرؤيا التى رآها الملك، وأولها لهم بسبع سنين كثيرة الثمار، وسبع مجدبة، وعاما كثير الثمر يأتى بعد هذه الأعوام، ولم يقف يوسف عليه

(١) الأستاذ سيد قطب: فى ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٤، ٢٢٩٥.

السلام عـند حد التأويـل، بل وضع خطة يسـتغرق تنفـيذها خمسـة عشر عامـا، وبعد أن خرج مـن السجـن، وقابل المـلك، أعطـاه الملك فـرصة تطبيـق خطته والإشراف عليـها، وبالفعل نجحـت الخطة نجاحا عـظيمًا، والذين يقفون عند نجاح هذه الخطة فى هذه السنين فقط، لا يعقلون فهم القرآن الكريـم، ولا تقدير الأعمال المخـططة (الاستراتيجيـة) لأنها تؤثر كثيرا فـى حياة الشعوب، ولا أغـالي إن قلت إن مصر عـاشت من يوم أن أقام فيـها يوسف الـمخازن التى تـحفظ الغـلال وإلى عهد قـريب، وهى تطبق هذه الخطة، ومـنذ العشرات القليلة من السنيـن، كانت مصر تصدر القمـح وكثيراً من أنـواع الحبوب إلى جـهات كثيرة مـن العالم، ولكـنها عادت إلى الـفترة السـابقة على وجـود يوسف علـيه السلام مـن الجدب والجوع، حـين أعرضت عن الـتخطيط لـلمستـقبل وعاشت حـاضراً بلا أمل يسعى إليه، وأملا بلا حاضر يرتكز عليه.

بقى أن نقول إنه فى هذا الزمن الذى خـلت فيه ساحة الفكر الإسلامى من الفكر المستقبلي، لو عرضت هذه الـمشكلة على أحد المتحدثين فى الإسلام كما عرضت على يوسف عليه السلام ، لردد على أسماع الناس: **﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾**. **﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقـها﴾**. **﴿إن الله هو الرزاق ذو القـوة المتين﴾**. من غير أن يـفطن إلى معاني هذه الآيات، ومن غير ربطها بـسياقها، وربطها بخلافة الإنسان فى الأرض، وتـحمله مسئولية تـنفيـذ مشروع الـله تعـالى فى الـكون،

ولسوف يعتبر غفلته هذه إيمانا، ولسوف يأمر الناس بالتوكل على الله تعالى، وترك المستقبل لله تعالى .

وسوف أسوق هنا هذه الآيات من سورة يوسف ـ عليه السلام، ونترك الآيات تشرح بنفسها المشكلة، وكيف عالجها يوسف عليه السلام علاجا مستقبليا مفيداً للحاضرين، وللذين يأتون من بعدهم، وكيف حول مصر إلى مزرعة العالم في أوقات من التاريخ الإنساني، الذي يلي فترة يوسف عليه السلام يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ

أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [من سورة يوسف عليه السلام : الآيات : ٤٣:٥٦].

نعود مرة أخرى إلى بعض السادة المفسرين لنرى وجود الفكر المستقبلي فى تفاسيرهم.

الإمام القرطبي:

يقول : فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى﴿ **قال تزرعون**﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له، فقال : السبع من البقرات السمان، والسنبلات الخضر سبع سنين مخصبات، أما البقر العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات، فذلك قوله تزرعون سبع سنين دأبًا، أى متوالية متتابعة.

﴿**فما حصدتم فذروه فى سنبله**﴾ قيل : لئلا يتسوس وليكون أبقى وهكذا الأمر فى ديار مصر ﴿**إلا قليلا مما تأكلون**﴾. أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة وهذا القول منه أمر، والأول خبر، ويحتمل أن

يكون الأول أيضًا أمرًا، وإن كان الأظهر منه الـخبر، فيكون معنى تزرعون أى ازرعوا.

الثانيـة: هذه الآية أصل فى القـول بالمصالح الـشرعية التى هـى حفظ الأديان، والـنفـوس، والعـقول، والأنسـاب والأموال، فـكل مـا تضـمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحـة، وكل ما يفوت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مـقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهـم الدنيوية، ليحصل لهـم التمكن من معرفة الله تعـالى، وعبادته الموصـلتين إلـى السعادة الأخرويـة، ومراعاة ذلك فضـل من الله تـعالى ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه ولا استحقاق، وهذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين[1].

وفى تـفسير الإمـام القرطـبى السابـق بعض الـنقاط الـتى تخدم فـكرة الاستقبال فـى القرآن الكريم، ووعى طيـب بمقصود الشريعـة، فهو يقول عن الآية التـى تخص (استراتيجيـة القمح فى مصر)، هـذه الآية أصل فى القول بالـمصالح الشرعية، الـتى هى حفظ الأديان، والنفـوس والعقول، والأنسـاب، والأموال، وهذا يدل عـلى وعيـه - رضى اللـه تعالى عـنه - بمقصد الشريعة العام، فكل ما يتضمن أمراً من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يـفوت شيئـاً منها فـهو مفسـدة. ويقول : ولا خلاف أن مـقصود الشرائع (هو) إرشاد الناس إلى مصالحهم الـدنيوية ليحصل لهم التمكن

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٠٢, ٢٠٣.

من معرفة الله تعالى وعبادته والموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عزّ وجلّ ، والإمام القرطبي يعبر عن المستقبلية فى هذه الآيات ويمزجها مزجًا بمقصد الشريعة العام، لأنه بدون التخطيط ومراعاة المستقبل لا تقوم دنيا، ولا يبقى دين، أما أولئك الذين ينظرون إلى التخطيط للمستقبل على أنه نقص فى الثقة بالله تعالى ، فهؤلاء بعيدون جدًا عن فهم منهج الإسلام، ومشروع الكون وتطور الحياة، وهو فكر يسعد العدو، ويحزن الصديق، ولعل من المنطق أن نطلق على هذا الفكر، أنه فكر الغياب.

رأي الأستاذ : سيد قطب:

يقول : ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه وهذا أكمل. قال : تزرعون سبع سنين دأبا. أى متوالية متتابعة وهى السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان.

- ﴿**فما حصدتم فذروه فى سنبله**﴾. أى فاتركوه فى سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية.

- ﴿**إلا قليلا مما تأكلون**﴾- فجردوه من سنابله واحتفظوا بالباقى للسنوات الأخرى المجدبة، المرموز لها بالبقرات العجاف.

- ﴿**ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد**﴾. - لا زرع فيهن.

- ﴿**يأكلـن ما قدمتـم لهن**﴾. - وكانت هـذه السنوات هى التـى تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها.

- ﴿**إلا قليلا ممـا تحصنون**﴾. -أى إلا قليلا مما تحفـظونه وتصونونه من التهامها.

- ﴿**ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾. أى ثم تنقضى هذه السنوات الشداد العجاف الـمجذبة، التى تأتى على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضى ، ويعقبها عام رخاء، يغاث الناس فيه بالزرع، والماء، وتنمو كرومهم فيعـصرونها خمرًا، وينمو سمسمهم، وخسهم، وزيتونهم، فيعصرونه زيتًا[1].

تحدث الأستـاذ سيد قطب - رحمه اللـه تعالى - عن تفاصيـل الخطة، ولكنه لم يـوفق كما وفق الإمام القرطـبى - رحمه الله تعالـى - فى ربطها بالفكـر المستقبلـى ثم ربط الفكر المـستقبلى بـمقاصد الشريعـة العامة، وهى تحقيق مصالح الناس فى دنياهم والعمل على تطوير الحياة.

الموقف السادس:

خرج نبى الله تعالى موسى عليه السلام من مصر خوفًا على حياته، بعد أن قتل أحد الـمـصريين، فى تشابك نـشأ بين المصرى واليـهودى، ونصر موسى عليـه السلام اليهوديَّ، وقتل المـصريَّ من غير قصد لقـتله، وعند ذلك خرج مـن المدينـة هاربًا بعـد أن أخبره رجل جـاء إليه يسـعى، بأن

(١) الأستاذ سيد قطب: فى ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٣، ١٩٩٤.

الملأ يـأتمرون به ليقـتلوه، وعندمـا توجه إلى مدين، وورد مـاءها، وجد عليه أُناسًا كثيرين يسقون ووجد خلفهـم امرأتين تمنعان إبلهما وغنمهما من السَّقْيِ، ولـما سألهما عن سر ذلك الـمنع قالتا: لا نسقى حـتى يسقيَ الرعاة ويتركون الماء. والذى دفعنا إلى ذلك أن أبانا شيخ كبير، فعز عليه أن يكون سبـب تأخير سقيـاهما، هو مزاحمـة الرجال، فسقى لـهما، ولم يسألهما أجراً على ذلك، بل انصرف صامـتا، وشكر الله سبحانه وتعالى على ما رزقه من خيـر، وأكد فى شكره أنه ما زال فقيراً ومحتـاجا للمزيد من عطاء الله سـبحانه وتعالى ، ولـما رجعت البنـتان وأخبرتا أبيهـما بما حدث شكر الله تعالى على ذلك ثم قالت إحدى البنتين:

- وكانت قد أدركت بفراستها أنه غريب وفى حاجة إلى من يستأجره.

- ﴿**يا أبتى اسـتأجره**﴾- فإنه أفضل من تستأجـر قوة وأمانة، فأرسلها إليه، وجاءته وأخـبرته بما أرسلت له وذهب مـعها إلى أبيها، والتـقيا لقاء الأتقيـاء الأوفياء، وعرض عـليه الأب أن يزوجـه بنتا مـن بناته مـقابل أن يعـمل عنده ثـماني سنـوات - ﴿ثمانـيَ حجج﴾- ثم طـلب منه أن يـتم العشـرة تكرما، ولـكن موسى عـليه السـلام لم يعط مـوافقته عـلى زيادة عامين علـى الثمانية، بل قال لـه : إن قضيت ثمان فقط قـضيت ولا شىء علـيَّ، وإن قضـيت عـشرا فـقد قـضيـت، أى أنه أعـلن الـموافـقة عـلى الالتـزامات بالثـمانية والـموافقة مـع عدم الالتـزام على العـامين التـاسع والعاشر وفى هذا النص تلاحظ ما يلى:

(أ) أن الرجل الصالح وموسى عليه السلام اتفقا على خطة يستغرق تطبيقها ثمان أو عشر سنوات ولم يطعن ذلك فى دينهما.

(ب) أن موسى عليه السلام لم يوافق ملتزما على العشر، رغم أنه كان فى موقف مشحون بالعواطف المختلفة لأن وقت المؤمن ثمين جداً، وهو ثروته الحقيقية فى الحياة.

(جـ) أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يرفض الزيادة رفضًا قاطعًا: وهذا لفرط أدبه وكياسته- لأن هذه الزيادة داخلة فى صداق الزوجة، ورفضه الواضح كان سيسبب حرجا للوالد، لأنه هو الذى عرض عليه، والرفض يعنى أن الزوجة لا تساوى أكثر من ثماني حجج، وهو يضر بشعور الوالد والزوجة على السواء، أضف إلى ذلك أنه سيظهر بخيلا، والنساء لا يحببن البخلاء.

(د) أن الله تعالى أورد القصة فى معرض الرضا عن تفاصيلها، ولم يعترض سبحانه وتعالى على شيء منها.

(هـ) أنني أرجح أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأقرب وهو الثمانى سنوات، ثم أصبح حراً ثم قضى الزيادة، ثم توجه إلى مصر لتبدأ رسالته المباركة.

(و) أن الله تعالى يرضى عن التخطيط للمستقبل ويباركه، ويجعله داخلا فى عقد شرعيٍّ عوضا عن الصداق.

ـ القصة فى القرآن الكريم:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ

قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾. [من سورة القصص الآيات: ١٥-٢٩].

وبعد هذه الملاحظات نعود معًا إلى التفاسير لنطلع على آراء بعض المفسرين حول هذه القصة وعناصر المستقبل فيها.

الإمام ابن كثير:

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات **﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك﴾**.

أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثماني كفاية، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين.. وقد استدل بهذه الآية لمذهب الأوزاعي، فيما إذا

قال بعتك هذا بعشرة نقداً، أو بعشرين نسيئة، أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح.. قال موسى لصهره إن الأمر على ما قلت، من أنك استأجرتني على ثماني سنين فإذا أتممتُ عشرا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال «**أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على**»(١).

ويرى الإمام ابن كثير بعد ذلك أن موسى قضى عشر سنوات واستدل على ذلك بأحاديث كلها مرسلة، ولم يفسر معنى لام «الأجل». هل هى للعهد أم للجنس؟.

فإن كانت للجنس فهى للأجل الأول، وأجل واحد، وليس أجلين، وإن كانت للعهد، فالعهد الملزم بين الرجلين على أجل واحد، ولا أدرى لماذا ترك العلامة ابن كثير توضيح معنى اللام فى الأجل، ربما لأن ذلك كان سيناقض الفرضية التى وضعها، وهو قضاء العشر سنوات، أو يعارض بعض الأحاديث التى أوردها فى تفسيره، وهى أحاديث يجب الأخذ بها إن كانت صحيحة موثقة.

يقول : قوله تعالى : ﴿**قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على**﴾. لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى عليه السلام، وكرر معناه على جهة التوثيق فى أن الشرط إنما وقع فى ثماني حجج، وأيما استفهام منصوب بـ «قضيت». والأجلين مخفوض بإضافة «أيْ»

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨٥.

إليها «وما» صفـة للتأكيد، وفيه معنى الـشرط، وجوابه «فلا عدوان»، وأن «عدوان» منصوب «بلا»، وقال ابن كيسان «ما» فى موضع خفض بإضافة «أيّ» إليـها وهـى نكـرة و«الأجليـن» بدل مـنها، وقـرأ الحـسن: «أيـما» «بسكون» الياء وقرأ ابن مسعود «أيّ الأجلـين ما قضيت» وقرأ الجمهور «عدوان» بـضم العيـن، وأبو حيوة بـكسرهـا، والمعنـى لا تبعة عـليّ ولا طلب فـى الزيادة علـيه، والعدوان الـتجاوز فى غـير الواجب، والـحجج السنون[1].

يقرر الإمام الـقرطبى الخطـة التى اتفق عليـها العبد الصـالح، وموسى عليه الـسلام، ويؤكد أن موسى عـليه السلام التزم الـتزاما واجبًا بالـثمانى سنوات، واعتبر أنـه إذا قضاها فلا يجب أن يطالب بغيـرها، بل يترك هذا «الغير» لظـروفه المستقبلـة، وفى ظرف كهذا لو طلب مـن رجل فى هذه الأيام شرطاً كهذا لوافق على الزيادة من غير احتراز، لأننا أصبحنا لا نهتم بالمسـتقبل ولا بالتـخطيط والتدبيـر له من أيّ ناحية، وعـلى أيّ وجه من الوجوه.

رأي الأستاذ سيد قطب:

يقول: وقبل موسى العرض، وأمضـى العقد في وضوح كذلك و دقة، وأشهد الله: **﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على مـا نقول وكيل﴾**. إن مواضع العقد وشروط الـتعاقد لا مجال

(1) الإمام القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٧٩.

للغموض فيها، ولا للعتمة، ولا للحياء ومن ثم يقر موسى العرض، ويبرم العقد، على ما عرض الشيخ من الشروط، ثم يقرر هذا ويوضحه ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ سواء قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشراً، فلا عدوان فى تكاليف العمل، ولا عدوان فى تحتيم الشر، فالزيادة على الثمانية اختيار ، ﴿والله على ما نقول وكيل﴾. فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين، وكفى بالله وكيلا بين موسى ـ عليه السلام ـ هذا البيان تمشيًا مع استقامة فطرته ووضوح شخصيته، وتَوْفية بواجب المتعاقدين، فى الدقة والوضوح والبيان، وهو ينويَ أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل، فقد رويَ أن رسول الله ﷺ أخبر أنه (قضى أكثرهما وأطيبهما)(١).

وتبدو عناصر الخطة المستقبلية التى اتفق عليها صاحب موسى معه واضحة بارزة عند صاحب الظلال، وركز رحمه الله تعالى على الدقة فى الاتفاق، وتوثيق عناصر الاتفاق بالتكرار، وإشهاد الحق سبحانه وتعالى على هذا الاتفاق.

الإمام الزمخشري:

يقول: «ذلك» مبتدأ و«بينى وبينك» خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب، يريد ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه، وشارطتنى عليه قائم بيننا جميعًا لا نخرج كلانا عليه، لا أنا عما شرطت عليّ، ولا أنت عما شرطت على نفسك، ثم قال : أيّ أجل من الأجلين قضيت الذي هو

(١) الأستاذ سيد قطب : فى ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٨، ٢٢٨٩.

العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان «فلا عدوان على» أيّ لا يعتدي علي في طلب الزيادة عليه، فإن قلت تـصور العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصـر، وهو المطالبة بـتتمة العشر فـما معنى تعلـيق العدوان بهما؟.

قلت معناه كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانًا لا شك فيه، فذلك إن طولبـت بالزيادة على الثمان، أراد بذلك تقـرير أمر الخيار، وأنه ثابـت مستقر، وأن الأجـلين على السـواء إما هذا، وإما هذا مـن غير تفاوت بينهمـا فى القضاء، وأما التتمة فموكولـة إلى رأيي إن شئت أتيت بها، وإلا لم أجبر عليها[1].

وبرأى الإمام الزمخشـري ننتهي من الموقف السـادس بعد أن ظهر أن المستقبلية كانت أساس بنُيانه وأهم أركانه.

الموقف السابع:

يدور هذا الموقـف حول موقف حاليّ يحتـاط فيه للمستقـبل وهذا ما يعني فى لغة العـسكريين - استغلال الموقف التكتيـكي لصالح الموقف الاستراتيجي العام فقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ أن يحارب فئة خارجة وأن يشدد عـليها فى القتال لـكي يرهب فئات أخرى، لم يـشتبك المسلمون معهم فى قتال بعد، ويكـون الهدف المرحلي (التكتيكي)، هو تدمير هـذه الفئة، والهدف الـمستقبليّ (الاسـتراتيجيّ) هو إظـهار شوكة

(١) الإمام الزمخشرى: الكشاف ٣/ ١٧٣ , ١٧٤

المسلمين وعزتهم للآخرين لتصبح العزة والغلبة علامة من علامات المسلمين، قال تعالى : **﴿فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾**(١).

والآية تتحدث عن رؤية مستقبلية شاملة تستغرق مئات السنين، بل الآلاف من السنين، فقد ظل ينظر للجيش الإسلامى على أنه الغالب دائما حتى ذهبت شوكة المسلمين فى العصر الحديث.

رأي ابن كثير:

يقول الإمام «ابن كثير» فى تفسير هذه الآية **﴿فإما تثقفنهم فى الحرب﴾** أى تغلبهم وتظفر بهم فى حرب **﴿فشرد بهم من خلفهم﴾** أيْ نكل بهم.

قال ابن عباس، والحسن البصرى، والضحاك والسدي، وعطاء الخراسانيّ، وابن عيينة: ومعناه: غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة **﴿لعلهم يذكرون﴾** قال السدي: يقول : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك(٢).

فى الفقرة السابقة وقف الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - على المعنى المستقبلي العظيم فى الآية الكريمة، وقد نقل إجماعاً عن الأوائل الذين عاشوا هذه المعاني العظيمة، وتعاملوا بها واضحة جلية.

(١) من سورة الأنفال: الآية ٥٧.

(٢) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٠.

- يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير هذه الآية **﴿فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾**. وإنه لتعبير عجيب يرسم صورة للأخذ المفزع، والهول المرعب، الذي يكتفى السماع به للهرب والشرود فما بال من يحل به هذا العذاب الرهيب؟ إنها الضربة المروعة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ، أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامى أولا، وليدمِّر هيبة الخارجين عليه أخيراً، وليمنع كائناً من كان أن يجرؤ على التفكير فى الوقوف فى وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد.

إنها طبيعة هذا المنهج، الذي يجب أن تستقر صورتها فى قلوب العصبة المسلمة، إن هذا الدين لا بد له من هيمنة، ولا بد له من قوة، ولا بد له من سطوة، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيت، حتى لا تقف للمد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الإنسان فى «الأرض» من كل طاغوت، والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ، في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت هم أُناس لا يعرفون شيئًا عن طبيعة هذا الدين(١).

وبعد هذه الفقرة من ظلال القرآن نكتفي برأي كل من الإمام ابن كثير، والأستاذ سيد قطب فى تفسير الفكر المستقبلى فى الآية الكريمة؛ لأنهما معا نقلا صورة واضحة لما في الآيات الكريمة من قواعد للعمل المستقبلي، والحقيقة أنّ هذه الآية فرضت نفسها على المفسرين بموضوعها فى علاج فكرة المستقبل، ولذلك لم يكتنف الغموض تفسيرها كما حدث للآيات السابقة.

---

(١) الأستاذ سيد قطب: فى ظلال القرآن ٣/ ١٥٤٢.

المستقبل الأخروى فى القرآن الكريم:

الموقف الأول:

يتفوق الفكر المستقبلى فى القرآن الكريم على غيره من فكر البشر، فى أنه يقف بالمستقبل عند الحياة، بل ينتقل بالفكر المستقبلى فى القرآن من التخطيط للحياة، إلى التخطيط لما بعد الموت بفترات طويلة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى، وإليك هذه الصورة التى تنتقل من العمل الدنيوى، بعد أن جعلته قاعدة للحياة الأخروية، أى جعل الآخرة مستقبلية (استراتيجية) للعمل الدنيوى فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ
جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ
اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً
وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا
(١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
(١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ

وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾(١).

في الآيات السابقة (استراتيجية) كاملة تشمل الحياة والموت، وهي تبدأ بخوف المؤمنين من يوم كان شره مستطيراً، ثم تبين لنا الخطوات العملية (التكتيكية) التي اتخذوها للوصول إلى الأمن في هذا اليوم، ثم ترسم لنا بدقة وبطء كل ما سيحدث لهم نتيجة أعمالهم، التي قاموا بها من أجل تأمين مستقبلهم الأخروي، وكيف جاءت النتيجة كما يرجون، ووفق ما يخططون، ولن نعدم رجلا من المتقعرين فى علم الكلام، يقول لنا إنهم دخلوا الجنة بفضل الله تعالى ولم يدخلوها بأعمالهم وبخططهم، ونحن لا نعترض على ذلك، بل نقول إنهم عملوا بفضل الله تعالى، ودخلوا الجنة بفضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يشمل كل المخلوقات، لكن من يعمل فى إطاره تختلف نتيجة عمله عمن يعمل بعيداً عنه، وبذلك يكون هؤلاء الناس قد خططوا ووصلوا إلى ما خططوا له، كما تحدثنا الآيات، ودخولهم بعملهم أو بفضل الله تعالى مشكلة كلامية، المهم لدينا أنهم دخلوا الجنة ونجوا من شر يوم القيامة كما تمنوا وعملوا لذلك، وسوف نترك المتكلمين عاكفين على مواقفهم الفلسفية، وندعو الأمة كلها للعمل المخطط والتخطيط للحياة ولما بعد الحياة.

(١) سورة الإنسان : الآيات ٧- ٢٢.

الموقف الثاني:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾(١).

في هذه الآيات الكريمة موقف لرجلين: أحدهما أدخل المستقبل البعيد في حسابه، وعمل له، فترتب نجاته على هذا الموقف المستقبلي المحسوب، والآخر عاش في الدنيا يومًا بيوم، كالسائمة من الحيوان، فكان جزاؤه غضب الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومقت الله سبحانه وتعالى.

وإذا نظرنا إلى الآيات الكريمة الأولى بإمعان نلاحظ أن النجاة تأسست فيها على الوعي بالمستقبل عند من ﴿**أوتيَ كتابه بيمينه**﴾، فهو

(١) من سورة الحاقة: الآيات من ١٨– ٣٧.

يعرض كتابه على الناس فى زهو وفرح بالغين، ويقول لهم: إن سبب سعادتى جاء من وعيي بالمستقبل، وعملي لهذا المستقبل، ويتضح ذلك فى قوله ﴿**إني ظننت أني ملاق حسابيه**﴾. ثم تأتي بعد ذلك العيشة الراضية، والجنة العالية، والقطوف الدانية، والحياة الأبدية السعيدة، كل ذلك جزاء على التخطيط الجيد للمستقبل البعيد.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم الوجه الآخر للصورة، صورة الإنسان الذي لا يفكر إلا في وقته المعاشي، ولا ينظر إلى المستقبل البعيد، أو القريب، وهيَ صورة مروعة تنخلع منها القلوب، وتقشعر منها الأبدان، حتى يصرخ صاحبها: «**يا ليتها كانت القاضية**». أيْ يتمنى أن موته كان موتاً أبديا لا قيام منه، هنا تتلاشى عظمة الإنسان ويسقط دوره وتنعكس مهمته في الحياة، ويصيح فى حيرة قاتلة، وخيبة ماثلة، كيف عمل ضد نفسه كل هذه السنون، وكيف تغافل عن المستقبل وهو آت لا ريب فيه؟

ولماذا لم ينظر إلى الحكمة التي من أجلها خلق، والمهمة التي كلف بها بعد خلقه؟

الموقف الثالث:

وهذا الموقف يدور حول صديقين، كانت لهما جلسات ومحاورات حول: هل من الواجب العمل للمستقبل البعيد؟ أم أن ذلك لا يجب وأن هذا المستقبل هراء وخواء؟.

وينقلنا القرآن الكريم إلى الدار الآخرة، وقد ترتب فيها السبب على مسببه، وأصبح صاحب الوعي المستقبليّ فائزا ناجيًا، وصاحب اللهو

واللعب خائبًا هالكا، يقول الله تعالى وهو يعرض لهذا الموقف: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾(١).

تتبلور رعاية المستقبل في هذه الآيات على أنها مسألة حتمية تتعلق بمصير الإنسان في الدنيا والآخرة، ودائما هناك فريقان: فريق يرى أن رعاية المستقبل بالتخطيط والعمل هي النجاة وهي التي تنسجم مع فطرة الإنسان، وفريق آخر يرى أن المستقبل بعد الموت خيالات وأوهام، ولا يبقى عند هذا الاعتقاد ساكناً، بل ينطلق مهاجماً أصحاب الفكر المستقبليّ، ويقول لأحد أصدقائه:

(١) من سورة الصافات : الآيات ٤٠ ـ ٦١.

﴿أءنك لمن المصدقين * أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمدينون﴾.

فهو يسخر من عقيدة صاحب الفكر المستقبليّ، والوعي المستقبليّ، ولأن المستقبل غيب، وليس للإنسان فيه إلا ما خطط وعمل له، فإن صاحب الفكر الآنيّ يظل يردد هذه العبارات المستندة على الواقع المعاش، حتى يقترب من التأثير على صديقه وعندما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فإن ذلك الحوار البعيد لا ينفك يدور برأس صاحب الجنة، ولذلك يسأل ربه سبحانه وتعالى عن صديقه صاحب الحجة الآنية، وماذا حدث له؟ فيقول له انظر فى النار تجد صديقك، فينظر فى النار وتتجسد قمة المأساة فى خطابه لصديقه وهو فى النار **﴿تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين﴾**.

يعني بقوله هذا : لو طاوعتك في لهوك وغفلتك وفكرك الآنيّ، لكنت الآن مثلك أتلظى بالنار، وأطعم من الزقوم، ثم يكرر له عبارته السابقة:

﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ ثم يقول له: إن ما أنا فيه الآن من نعيم لهو الفوز العظيم، ثم يعقب الحق سبحانه وتعالى بقوله : **﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾**.

أي أن تأمين المستقبل البعيد والقريب، يجب أن يكون غاية يعمل العاملون من أجلها، وتلاحظ هنا لفظتيْ «يعمل، والعاملون» أي أن المستقبل يحتاج إلى عمل يتصف صاحبه بالعامل، وكأن هذه الصفة غلبت على كل صفاته الأخرى، ولو أخذت آيات القرآن الكريم من هذا

المنظور، لفتحت لنا كنوزاً من المعاني التي تضيئ الطريق، وتهدي إلى الصراط المستقيم.

الموقف الرابع:

في هذا الموقف يتوازى المستقبل القريب والمستقبل البعيد، ويتضح أنه ليس هناك مستقبل أخروي لمن ليس له مستقبل دنيوي، بمعنى أن الذي يفشل في التخطيط للدنيا، ولتحقيق خلافة الله تعالى في الأرض، ينسحب عليه الفشل في مستقبله الأخروي.

ويتضح أن المستقبل ثروة بالنسبة للمسلم، وأن هذه الثروة تتآكل بمرور الأيام، ولا يمكن استرجاعها بعد ذلك مهما حدث، بل إن من يطلب ذلك لا يواجه إلا بالسخرية والاحتقار، قال الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)
فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا
كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ

عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى
جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأَرْضِ
عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن
لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

وهذه الآية الكريمة الأخيرة توضح أن الإنسان مخلوق لهدف وغاية، وله بداية ونهاية، وأنه بين بداياته ونهايته له هدف، ولذلك يسأل الحق تعالى:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ فالله تعالى يمنح الإنسان عمره، تفضلا منه تعالى، وينظر كيف يعمل فى هذا العمر، وكيف يستثمر وقته، وكيف يخطط لذلك.

* * *

(١) من سورة المؤمنون: الآيات ٩٩- ١١٥.

الفصل الثانى

الفكر المستقبلي في السنة الشريفة

بعد أن رأينا أن للفكر المستقبلي ماله من التأصيل والثبات فى القرآن الكريم، نطوف بالسنة النبوية الشريفة فهي التي ينتقل فيها المثل من الحيز النظري إلى الواقع العملي، وإذا كانت نصوص القرآن الكريم تحتمل التأويل الذي يؤدي بها إلى التعطيل فى بعض الأحيان فإن المستقبلية فى السنة الشريفة لا تحتمل التأويل، لأنها أحداث وقعت وتركت آثارها فى التاريخ البشري، ولسوف نرى كيف أن النبي ﷺ أولى عناية خاصة بالتخطيط للمستقبل لدرجة جعلته يتفوق على واضعي الخطط أو الاستراتيجيات الذين جاءوا من بعده، رغم بساطة الوسائل التي جادت بها الظروف فى جزيرة العرب وقتها.

وإذا كانت الاستراتيجيات العسكرية هي وضع هدف نهائي لأي صراع عسكري، ومحاولة الوصول إليه بمجموعة من الأهداف والخطط التكتيكية، فإننا سنرى أن النبى ﷺ ، كان يخطط لهدفه العسكري، ولمجموعة لا تحصى من أهداف السلم، وبناء الحضارة الإسلامية العظيمة وسوف أسوق هنا بعض النماذج التي يتضح من خلالها عبقرية الإسلام المستقبلية من خلال تطبيق النبي ﷺ لها، وهي كما يلى:

(أ) بيعة العقبة الأولى:

لا بد من التنويه إلى أن تربية النبى ﷺ للمسلمين فى بيت الأرقم ابن أبى الأرقم كانت مرتكزاً مستقبليا (استراتيجياً)(١).

(١) فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم، وفى ليل الصحراء الهادئ تم تكوين أعظم القادة فى التاريخ من خلال مخاطبة الفطرة، والنظر إلى الحقائق نظرة مجردة بعيدة عن كل الملابسات، وإذا نظرنا إلى ما حدث فى بيت الأرقم نظرة استراتيجية حديثة لقلنا إنها كانت تشبه معاهد إعداد القادة المدنيين، أو معاهد أركان حرب العسكريين، أو المعاهد الاستراتيجية فى العالم الحديث.

ولكننا اخترنا بيعة العقبة الأولى كأول خطوة واضحة من ناحية البناء التاريخي للحدث، بمعنى أنها كانت - فعل شيء في الزمان الحاضر ليترتب عليه أشياء في الزمان القادم أو المستقبل.

ضاقت مكة برسول الله ﷺ وبالمسلمين من أصحابه، بعد أن تنبه المكيون إلى أن هذه الدعوة - إن لم يستجيبوا لها - سوف تأتي عليهم في يوم من الأيام، ولذلك استماتوا في مقاومة الدعوة إلى أقصى مدى يتخيله العقل البشرى، ووضعوا في وجهها، العراقيل التي تعمل على وقف تدفقها في البلاد، وفي قلوب العباد، وكان لا بد من البحث عن أرض جديدة للدعوة، لتقوم فيها دولتها ويتحدد فيها نظامها، ويتكون فيها جيشها، حتى تصل هذه الدولة إلى المقدرة على رد العدوان، وإقامة دولة، ووضع نظام خاص لها وتكوين جيش لها، كل ذلك لا يتم في أرض الغير، ولا في أرض تؤجر من أصحابها، وكانت هذه هي المشكلة المستقبلية[1] الأولى التي واجهت النبيَّ ﷺ، وكان لا بد من ضم أهل هذه الأرض إلى نفس الدين الذي ستقوم عليه الدولة عندهم، ومن ثم بدأ رسول الله ﷺ في عرض نفسه على القبائل في موسم الحج لكي

(١) اتخاذ مكان جديد للصراع يسمى عند علماء الاستراتيجية العسكرية الحصول على (العمق التعبوي) للصراع، وإذا تم إقامة النظام الجديد في هذا المكان تحول إلى (عمق استراتيجي)، أي أصبح قاعدة انطلاق دائمة في الصراع وهذا ما حدث لمدينة رسول الله ﷺ.

يدرس أهم المواقع، وأقرب القبائل للاستجابة للدين الجديد.

يقول ابن هشام:

«قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عزَّ وجلَّ إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقيَ رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ : قال لهم: من أنتم؟ قالوا : نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم؟ قال : أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا من أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غروهم [1] ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله تعالى قال بعضهم لبعض يا قوم: تعلمون، والله إنه النبيّ الذي توعدكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه

(١) غروهم: غلبوهم: المعجم الوسيط.

ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة. قال : وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء(١)، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب.

وعن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى: على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف.

فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا وكفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة أمركم إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

---

(١) جاءت بيعة النساء فى القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية:١٢ من سورة الممتحنة.

مصعب بن عمير:

فلما انصرف القوم عائدين إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرىء بالمدينة(١).

قدمت فيما سبق ما نقله ابن هشام حول بيعة العقبة الأولى، وقد نقلته بتفاصيله حتى تقف على بداية التخطيط العظيم للخصول على مكان آخر (عمق استراتيجي) للدعوة الإسلامية، تنشىء فيه دولتها وتحقق فيه عزتها وتنشر فيه دين الله تعالى الواحد الأحد، حتى تتسع دائرة المعتنقين لهذا الدين، ثم تعود الدعوة إلى مكة ظافرة قاهرة، لا شك أن كل هذه الأفكار، كانت واضحة عند رسول الله ﷺ ، وسوف تزداد هذه الخطة عند القارىء بعد أن يتفهم الخطة في بيعة العقبة الثانية لأنها كانت بيعة على الحرب وسوف نرى أن كل الموجودين في مكان البيعة كانوا يعون المستقبل جيداً بتفاصيله الدقيقة، ويحتاطون لكل ما يستجد من الأمور.

(ب) بيعة العقبة الثانية:

يروى ابن هشام خبر البيعة الثانية يقول : قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق، حين أراد

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦-٥٨.

الله النصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

حدث كعب بن مالك قال : خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور سيدنا، وكبيرنا فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: - يا هؤلاء إني قد رأيت رأيا، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه أم لا؟ قال : قلنا: وما ذاك، قال : قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر يعني الكعبة وأن أصليَ إليها، قال فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ، صلى إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، قال: إني لمصل إليها ، قال : فقلنا له: لكنا لا نفعل: قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة، قال: وقد كنا عبناً عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك، فلمّا قدمنا مكة قال لي يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، حتى نسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله قد وقع في نفسيَ منه شيء لما رأيت من خلافكم إيايَ فيه، قال فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ(١).

وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال : هل تعرفانه؟ فقلنا لا، قال : فهل تعرفان العباس ابن عبد المطلب عمه؟.

قال : قلنا نعم ـ قال كنا نعرف العباس، وكان لا يزال يقدم علينا تاجراً: قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال :

---

(١)أنقل لك هذا النص قبل البيعة لكي تشعر بالجو النفسي السابق عليها وكيف قدم هذان الرجلان مسلمين من غير أن يروا رسول الله ﷺ .

فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس، ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال : نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : الشاعر؟ قال: نعم، قال : فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت فى سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟

قال: كنت على قبلة لو صبرت عليها، قال فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى معنا إلى الشام قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات..

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق قال : فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا ، فقلنا له وإنا نرغب بك عمًّا أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا(١).

ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بالموعد مع رسول الله ﷺ، فأسلم

(١) انظر إلى الوعى المستقبلى: إنه يتكلم عن الآخرة على اعتبار أنها الغد والمسلم ينظر إلى المستقبلية بوعى على أنها خطوات متتابعة.

وشهد معنا العقبة قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ، تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه[1]. ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب: فقال يامعشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمي هذا الحيّ الخزرج ـ خزرجها وأوسها ـ أما محمد منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال فقلنا له: قد سمعنا ما قلت: فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت: قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده فقال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[2].

---

(١) من الآن فصاعدا سيتكشف الوعي المستقبلي والاتفاق على التفاصيل، والجدير بالذكر أن هذه البيعة تمت بعد الأمر بالقتال إذن هي بيعة على استراتيجية الحرب وسوف تأتي التفاصيل فتؤيد ذلك.

(٢) العرب تكني عن المرأة بالإزار وعن النفس كذلك.

فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم ابن التيهان، فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا: يعني اليهود ـ وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا (١)قال : فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال بل: الدم الدم، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وحدث عاصم بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ، قال العباس بن عبادة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس(٢).

فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلى، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة: قالوا: أبسط يدك؛ فبسط يده فبايعوه.

---

(١) كما نظر العباس إلى المستقبل البعيد وأخذ العهد عليهم نظر أبو الهيثم كذلك إلى المستقبل وأراد أن يستوثق من رسول الله ﷺ، ومن هذه النصوص يتضح الوعي المستقبلي عند الجميع الرسول ﷺ ، والمسلم والمشرك على السواء.

(٢) يتضح من هذا النص فهم العباس بن عبادة للاستراتيجية الكاملة للهجرة ووعيه الكامل بالمستقبل، وليست المسألة هروباً بالدين كما فهم كثير من العلماء.

ثم قال رسول الله ﷺ ارفضوا إلى رحالكم: قال : فقال له العباس بن عبادة والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا.

قال: فقال رسول الله ﷺ : لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال : فرجعنا إلى رحالنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا.

قال : فلما أصبحنا غدت علينا جلة من قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم: قال : فانبعث من هناك من مشركي قريش قومنا يحلفون بالله، ما كان من هذا شيء، وما علمناه قال : وقد صدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر لبعض: قال: ثم قام القوم.

قال: ونفر الناس من منى، فتنطس القوم الخبر فوجدوه قد كان، وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبًا فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله»(١).

(١) النسع: الشراك الذي يربط به الرحل.

ثم أقبلـوا حتى إذا أدخلوه مكة يضـربونه، ويجذبونه بجـمته، وكان ذا شعر كـثير.. فهتف بـاسم رجلين فى مـكة كان يجيـر لهما فى المـدينة ـ يعنى ينزلان فى جواره إذا جاء إلى المدينة فأطلقاه[1].

التعليق:

التعليق على هذا النص يتلخص في عدة نقاط: منها ما يلى:

١ - رأينا فيما سبق كيف خطط رسول الله ﷺ للمستقبل[2].

وكيف احتاط لـهذا التخطيط فهو فـي البداية أخذ البيعـة على الأنصار في العـقبة الأولى، وكانـت تعتبر بـحق بيعـة الأساس، لأنها قامـت على الدين، وكـانت هذه بداية طيـبة من ناحية الـهدف العام وهو نشـر الدعوة الإسلامية، لأنـه لا بد من العقيدة أولا، ثـم بعد ذلك تأتي مرحـلة الدفاع عنها، وكلـما كانت العقيدة مؤسســة في نفس المعتقد، كلـما كان دفاعه عنهـا قويًا ونهـائيًا وإرسال مـصعب بن عمـير إلى المـدينة يؤكـد الرؤية المستقـبلية الممتدة عند رسـول الله ﷺ لأنه أضاف الكثير من الـمؤمنين إلى أصـحاب البيـعة، وقد رأيـنا كيف جـاء الصحـابيّ الكـبير البـراء بن معرور وهو يتأول القبلة، وهذا يدل على أنه تعمق فى الإيمان وأن إرسال

(١) سيرة بن هشام ٢/ ٦١ ,٦٨ ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) ورغم ثقة رسـول الله ﷺ ـ بحماية ربه له - فـهذا لم يمنعـه من أن يأخذ الاحتياط الـبشرى الذى يملـكه. «منير الغـضبان: المنهـج الحركي للسـنة النبوية ،ص ١٨٩ طـبعة رابعة ١٩٨٩: مكـتبة المنار ـ ويقول عن خروجه ﷺ في الهجرة :«لكن الله ـ تعالى ـ حرس نبيه ﷺ لا بمعجزة ولكن بعالم الأسباب في تخطيط البشر. ص ١٨٩م.

مصعب بن عـمير ـ رضيَ الله تعالى عنـه ـ كان خطوة مستقبـلية مدروسة ومنـتجة، ولـم يكن مـحض مصادفـة كما يـتصور الـبعض، أو مـن باب الكرامة فـقط، كما يتصور البـعض الآخر، إذن فذهاب مصعب بـن عمير إلى المدينة حـقق هدفه وأنشأ بيئة إسلامـية وصنع مكاناً مهيئًـا لاستقبال النـبيّ ﷺ، وبـناء الـدولة الجـديدة، وهـو ما يـطلق عـليـه فى اصـطلاح العسكريين (رأس كوبرى)، أو رأس حربة، أو بداية الزحف.

(ب) جاءت بيعة العـقبة الثانية لتنقـلنا إلى أجواء المستقبـل المخطط الذي لم يترك فـيه للمصادفة شيء ولـكى نقف على صحة هـذه الفرضية سوف نتناول بالتحـليل رأي ثلاثة ممن حضروا بيعة العقبـة الثانية وأثبتوا من خـلال مشـاركتـهم في الـبيـعة أنـهم علـى وعي كـبيـر بمسـتقبلـية (استراتيجية) البيعة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ وهؤلاء الثلاثة هم:

١ - العباس بن عبد المطلب:

خشى العباس أن يـكون الاتفاق قد تم بين النبيّ ﷺ وبـين الأنصار بدافع من الشعور العاطفي عند الأنصـار، أو بدافع من اليأس من إسلام قريش عند رسول الله ﷺ ولذلك حاول أن يستوثق من الحضور جميعًا، فقال:

«يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه[١] فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بـكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له

(١) يقصد رغم أننا متفقون مع أعدائه فى الرأى إلا أننا منعناه منهم.

بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

إن من يحلل كلام العباس تحليلا مستقبليًا فإنه يجد أنه كان يسير على خطوات مدروسة، وهو ينظر إلى المستقبل، فهو يقول لهم : إن الرسول ﷺ الآن في منعة رغم اختلافه مع قومه، ولكنه إذا خرج معكم وذهب إلى بلدكم سيكون غريبًا بينكم(١).

فهل أنتم كافلون له الحماية كما هي مكفولة له بين قومه وأهله، إن كنتم قادرين على ذلك فبايعوه، وإن لم تقدروا على ذلك ـ في المستقبل ـ فاتركوه من الآن يى منعته وعزه بين أهله، وكانت هذه الكلمات الصائبة هي التى دفعت الأنصار إلى قولهم لرسول الله ﷺ : «خذ لنفسك ما شئت». أي ضع كل القواعد التي سنلتزم بها أمامك الآن، وستكون دستورًا لتعاملنا فيما بعد، ولذلك قال لهم رسول الله ﷺ :

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فقال : البراء بن معرور: نعم: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، وتمت البيعة على شرط المستقبل.

(١) يلاحظ أن هذا الاتفاق كان قبل الهجرة الشريفة بكثير ولكنه الوعي المستقبلي الذي دونوه فى تعاقدهم مع رسول الله ﷺ.

٢- أبو الهيثم بن التيهان:

نظر أبو الهيثم إلى خطوة بعيدة في المستقبل لأكثر من عشر سنوات، وأبعد من نظرة العباس المستقبلية، نظر لما بعد تطبيق هذا الاتفاق المستقبلي، وانتصار النبيّ ﷺ، هل يعود إلى قومه، ويترك المدينة، وتكون الهجرة من هذه الزاوية خطوة أو هدفًا مستقبليا (استراتيجيا)، وهم - أي الأنصار - كانوا يأملون ذلك - يأملون أن تكون الهجرة هدفًا نهائيًا - ففي المدينة ستقام دولة الإسلام، ونظام الإسلام، ومن المدينة سينشر نور الله تعالى في أرضه، ولذلك قال أبو الهيثم «إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها يعني : اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

هنا نرى أن أبا الهيثم يستوثق من رسول الله ﷺ، كما استوثق العباس من الأنصار ويلاحظ أن أبا الهيثم لم يخرج من شخص رسول الله ﷺ، ويمتنع عن أخذ الميثاق عليه والسبب فى ذلك أن هذا الأمر يتعلق بالمستقبل، والمستقبل كان عندهم مسألة حياة أو موت والمستقبل والعمل له كان في فكرهم شيئًا واحدًا ثابتًا، تدور حوله طبيعة الحياة، فإن أحسن تنظيمه وتخطيطه، كانت الحياة فيه - أي في المستقبل - طيبة كريمة، وإن أسيء تخطيط المستقبل كانت المشاكل، وظهرت العقبات، ولو كان ما بين الرسول ﷺ، وأبى الهيثم بن التيهان، أي شيء من المال أو المتاع، فكنا لن نجد معارضة من أبي الهيثم، ولكنه كان سيسلم

تسليما ولكن بالنسبة للمستقبل لا بد من التخطيط والاتفاق، إنهم لم يكونوا علماء (للاستراتيجية) أو أساتذة في معاهدها ولكن فكرهم المستقبلي كان واضحًا في تفكيرهم وكلامهم، ولو رددنا الأشياء إلى أصولها، وابتعدنا عن زخرف القول، لخرجنا بصورة واضحة عن المستقبلية: «الاستراتيجية». ولأصبحت قواعدها بارزة واضحة ولكن البعض من بني قومنا لا يفهمون التخطيط والتنظيم إلا إذا قيل لهم إنه قادم من الغرب، ومن إفراز العلوم الحديثة.

العباس بن عبادة:

نظر العباس بن عبادة نظرة شاملة لكل الأحداث التي ستترتب على هذا الاتفاق المستقبلي «الاستراتيجي»- بين النبيْ ﷺ وبين الأوس والخزرج، نظر إلى قتل الرجال والنساء والأولاد من الأنصار، ونظر إلى هلاك الأموال، إلى تغير الحال وأراد أن يحتاط ويستوثق من الحضور وهم في بيعتهم، وأراد أن يضيء لهم المستقبل، ويكشف لهم الأحداث(١). منطبقة على الواقع، في ضوء المستقبل المنظور، فقال لهم:

«يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل، قالوا نعم:قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم

(١) ولم يضف توفيق الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ، ولا كرامة النبي ﷺ رغم ذلك، ولكنه نظر للمستقبل مقاسا على منطقية الأحداث ومتابعة الوقائع، ومما يرضي الله ـ تعالى ـ أن يحسب الإنسان حجم جهده وأبعاد دوره أولا، ثم يأتي بعد ذلك العون من السماء.

ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال : الجنة، قالوا: أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه».

من الأمور الدقيقة عند النظر للنص الذي نقله ابن هشام لبيعة العقبة الأولى والثانية، وخاصة الثانية أن معظم الحاضرين في مكان البيعة كانوا يملكون رؤية مستقبلية واضحة، وكان الواحد منهم يبدي رأيه بالنسبة للمستقبل، ويطلب الموافقة أو الرفض بالنسبة لأطروحاته المستقبلية فإذا وافقوا طلب منهم البيعة على ما وافقوا عليه، وهذا ما حدث بعد قول العباس بن عبادة لما وافقوا بايعوا رسول الله ﷺ مرة ثانية وهكذا في المرات السابقة حدث نفس الشيء.

ويلاحظ أن فكرة الدولة الإسلامية قد شخصت في فكر العباس بن عبادة، في بيعة العقبة الثانية وقبل الهجرة، ويفهم هذا من تحذيره لقومه: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود» معنى هذا أنه استقرأ الأحداث، وفهم ما يرمي إليه النبى ﷺ من الهجرة إلى المدينة وإعدادها لتكون مكانا للدولة الجديدة، أيْ فكرة رسول الله ﷺ المستقبلية، أو خطته فى ذلك كانت واضحة عند العباس بن عبادة ورأى أن تلك الخطة ستنتهى إلى الدولة، وستعمل هذه الدولة على نشر الدعوة الإسلامية فى

أرض الله تعالى. وسوف تتعرض هذه الدولة لقتال الأحمر والأسود.

لقد كانت بيعة العقبة الثانية مثالا مشرقًا للفكر المستقبلي، يكشف عن جانب من عظمة النبيّ ﷺ، وما أحوج الأمة الإسلامية إلى التأسي بهذه السنة العظيمة في النظر إلى المستقبل وعدم إغفاله بحجة أنه بيد الله تعالى، وهل نحن أكثر إيمانا بالله تعالى من رسول الله ﷺ ؟.

الإجابة: لا، ومع ذلك كان يفكر في المستقبل البعيد وكان يدفعه الإيمان إلى ذلك، ولن تقوم لفرد أو لأمة قائمة وهي تغفل المستقبل ولا تفكر فيه، ولا تعمل له؛ لأن المستقبل هو الخطوة التالية بعد الحاضر، والذين لا يبصرون موضع خطواتهم القادمة، هم أجدر الناس بالتردي في أول حفرة تعترضهم.

ولقد جن جنون قريش ـ وهي تفهم المستقبل أيضًا ـ حين علمت ببيعة العقبة الثانية، وكانت تقرأ الغيب مركوزًا على هذه البيعة فتراه غيبًا مدمرًا لها ولمكانتها في جزيرة العرب، إذن هي كانت تعي المستقبلية وقيمة التخطيط لها، ولكن منعها الكبرياء والحقد من اللحاق بالركب الكريم.

وعن بيعة العقبة الأولى والثانية يقول ابن إسحاق: «كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٢.

إذن فكلام العباس بن عبادة ضُمَّ للبيعة أو المعاهدة وسماها ابن إسحاق ببيعة الحرب، ويقول عبادة بن الصامت «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب، إذن البيعة الثانية هي بيعة الحرب، ويرى بعض العلماء أن «الاستراتيجية» تكون في« الحرب، وعلى رأيهم هذا تكون بيعة العقبة الثانية هي استراتيجية - حرب أي وضع خطة للوصول إلى هدف نهائي من خلال عدة صراعات مرحلية.

جـ - الرسول ﷺ يوادع اليهود ـ لتأمين الجبهة الداخلية:

ومع انتقال الرسول ﷺ وبعض أصحابه إلى المدينة، برزت مشكلة اليهود الذين يرون المستقبل بوضوح، ويعلمون أنهم لا بقاء لهم مع هذه الدولة الفتية، التي تقوم على الحق والعدل والعفة، والطهارة ، وكلها صفات تقلل من نفوذ اليهود، وتحد من سيطرتهم على الناس، أضف إلى ذلك أنهم، ومن خلال الأحداث، تكونت لديهم صورة واضحة عن النبى ﷺ، وعلموا أنهم لن يستطيعوا خداعه، وأن صناعة المكائد لن تجد رواجًا فى المدينة فى عهدها الجديد.

واستطاع النبيّ ﷺ أن يحتويهم في معاهدة جديدة، وادعهم فيها[١].

---

(١) ليس معنى هذا أن النبى ﷺ كان يجهل نوايا اليهود الخبيثة، ولكن العهد الذى قطعه لهم يلزمهم في حال الخيانة، وأصبح هذا العهد دستورا في المدينة يحاسب عليه فرقاؤها وليس هذا في صالح اليهود، وهو فى جميع الحالات يجنب الدولة الفتية الصراع وهي ما زالت فى مرحلة التكوين ويعطى فرصة لليهود إن أرادوا الحياة في أمن وسلام في جنبات الدولة الجديدة وهي خطوة مستقبلية عظيمة أن يحافظ على جهد الدولة في مرحلة التكوين ولا يضيع قوتها في صراعات هامشية.

وأثبت لهم ما يحق لهم، وما يجب عليهم. يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق:

«وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبيّ ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[1] بالمعروف، والقسط بين المؤمنين، وبنى عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[2] . كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم: يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل

(١) عانبهم: أسيرهم ـ المعجم الوسيط.

(٢) المعاقل : الديات: المعجم الوسيط.

طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه - وإنّ المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم(١). أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان والد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم،وأن كل غازة غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين بعضهم على بعض بما نال دماؤهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا(٢). عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضي وليّ المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء

(١) الدسيعة : أى طلب دفعًا على سبيل الظلم فأضافه إليه، فالإضافة معنى من. تاج العروس .
(٢) اعتبط: قُتِلَ بلا جناية.

فإن مـرده إلى اللـه عزّ وجـلّ وإلى محـمد ﷺ، وإن اليـهود يـنفقـون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسـلمين دينهم، ومواليهم، وأنفسهـم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نـفسه.(١) ـ وأهل بيته. وأن ليهود بنى النـجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإنّ ليهود بنـى الحارث، مثل ما ليهود بنى عـوف، وأن ليهود بنى ساعدة مثل مـا ليهود بنى عوف، وإنّ ليهـود بنى جشم مثل ما لـيهود بنى عوف، وإنّ البـر دون الإثم، وإنّ موالي ثعـلبة كأنفـسهم وأن بطانـة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحـد بإذن محمد ﷺ، ولا ينحجز على ثار جرح وإنّه من فتك ، فـبنفسه فتك، وأهل بيته إلا من ظـلم، وإنّ الله على أبر هذا، وأن على اليهـود نفقتهم، وإنّ بينهم النصـر على من حارب هذه الصحيـفة، وأن بينهم الـنصح والنصيـحة، والبر دون الإثم، وأنه لـم يأثم امرؤ بحـليفه، وأن النصـر للمظلـوم، وأن يثرب حرام جوفهـا لأهل هذه الصحيفة وإنّ الجـار كالنفس غير مضار، ولا آثم، وإن اليهـود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصـحيفة من حدث أو اشتجار يخـاف فساده فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى محمد ﷺ ، وإنّ الله علـى أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإنّ بينهم النصر على من دهم يثـرب وإذا دعوا إلى صـلح يـصالحـونه ويلـبسـونه، فإنـهم يصـالحـونه

(١) يوتغ: يهلك.

ويلبسونـه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فـإن لهم على المؤمنـين، إلا من حارب فى الدين، على كـل أناس حصتهم من جانبـهم الذى قبلهم، وإنّ يهـود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن هشام: مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة - وإنّ البر دون الإثم لا يكـسب كاسب إلا علـى نفسه وإنّ الـله على أصدق مـا فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم. وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ(١).

إن قراءة هـذه الصحيـفة بفـكر مستـقبلـي توضح أنـها كانت دسـتوراً لمديـنة رسول الله ﷺ، وأنهـا كانت خطوة مـرحلية «تكـتيكية» تنـسجم تماما مع الهدف الـنهائيّ لقيام دولة الإسلام، التي سينـاط بها نشر الدعوة الإسلامية، وسيادة الـعالم بالحق، والعدل، والخير والـجمال، وقد احتاط فيها رسول الله ﷺ لكل ما يمكن أن تأتي به الأيام، أو يستجد فى الأمور، وتصور المـدينة وهى تغرق فى صـراعات داخلية ووضع لذلـك القواعد والخطـط، وتصور المـدينة وهي تحـارب عدواً خارجيًا، وجـعلها كـلها صفًا واحدًا فى مواجهته فعن الصراع الداخلى يقول:

«وإنَّهُ مـا كان بين أهـل هذه الصحـيفة، من حـدث أو اشتجار يـخاف فساده، فإن مرده إلى الله عزَّ وجـلَّ ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ». وعن

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨- ٩١ ط المكتبة التوفيقية.

الصراع الخارجى يقول:

«وَإِنّ بينهم النصر على من دهم يثرب».

وهكذا يتضح في كل الصحيفة الفكر المستقبلي العام ويبقى سؤال: هل وادع رسول الله ﷺ بهذه الصحيفة كما يرى ابن هشام، وكثير من المؤرخين القدامى ؟

أرى أنه لم يوادعهم، ولكنه وضع لهم قانونا ملزما، وفتح لهم طريقًا للعيش بين المسلمين، فى ظل دولة الإسلام الناشئة، ولذلك لما غدروا فيما بعد تمت محاكمتهم على أساس هذه الصحيفة، ولذلك لم تكن موادعة بالمعنى العام، الذى يجد فيه الخصم مطعناً ولكنها كانت سلاما وإلزاما.

(د) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كانت المؤخاة بين المهاجرين والأنصار هيَ الخطوة الرابعة من الخطوات المستقبلية الكبيرة التي قام بها رسول الله ﷺ، فبعد أن تمت له السيطرة على تفاعل العناصر العرقية، والطبقية في المدينة من خلال المعاهدة السابقة، سيطر الإخاء على التفاعل داخل النفوس، وانصهر الجميع في بوتقة الإيمان وهم ينتظرون فجرهم الذي بدأ يلوح فى الأفق.

يقول ابن هشام عن الإخاء فى المدينة: قال ابن إسحاق:

وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: فيما بلغنا:«تآخوا فى الله أخوين أخوين»، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب،

فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين ـ الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد[1] وعلي ابن أبى طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ﷺ وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وكان أبو بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، وسعد بن معاذ أخوين ،وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام، وسلامة بن سلامة بن وقش أخوين، وعثمان بن عفان، وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين، وطلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك أخوين، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبيّ بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر بن وقش أخوين، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان،أخوين، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين، وبلال بن رباح وأبو رويحة أخوين، فهؤلاء من سموا لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه[2].

هذا الإخاء هو الذي دفع الجميع للتضحية بأموالهم وأنفسهم في

(١) خطير : الخطير: ذو الشرف والرفعة، الجليل الشأن.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٩ , ١١٠ ط مكتبة الكليات الأزهرية.

سبيل الله تعالى، وفى سبيل هذه العقيدة الجديدة التى لا تميز بين الناس على اعتبار العرق أو اللون، وإنما ثبت فيها أكرم الناس عند الله تعالى أتقاهم، وهذا الإخاء كان يترتب عليه حقوق كثيرة، من هذه الحقوق قسمة الأموال بين المتآخين، وكان الإخاء يعنى المساواة من جميع الزوايا الاجتماعية والمالية وخلافه، وأكبر دليل على ذلك، المؤاخاة بين حمزة عم رسول الله ﷺ ، وأسد الله تعالى، وزيد بن حارثة مولى (خادم) رسول الله ﷺ، كيف تم هذا؟.

لا بد أن هذه النفوس تَربَّتْ فى بيت الأرقم على قيم ومثل جديدة، وهذه القيم، وتلك المثل كانت مجتمعة تشكل الجو النفسيّ داخل الأمة الجديدة، وهي من عوامل السيادة والغلبة، وهيَ من العوامل المستقبلية الاستراتيجية التى تم إعدادها مبكراً مع بزوغ فجر الإسلام وفى بيت الأرقم بن أبى الأرقم، لأن بناء دولة وتكوين أمة لا يتم إلا بإعداد الجيوش وإحكام الخطط، فقد ينفع هذا في معركة أو غزوة، ولكنه لا يعمر طويلا، لأنه بعد عودة الجيوش وانتهاء الصراع، تتصارع العوامل الطبقية من جديد، بعد أن كانت كامنة أثناء المعارك، ثم شيئًا فشيئًا تنهار قوة الدولة، ولا يستطيع الجيش الذي انتصر في الخارج أن ينتصر في الداخل، لكل ذلك كانت المؤاخاة بين المسلمين من مهاجرين وأنصار منهاجا مستقبليا يؤمن الأمة في صراعها مع الأعداء ويفرز لها قوى متجددة تمدها بالثبات فى معاركها المتلاحقة.

هـ ـ الأذان:

قد يثير العجب عند القارىء أن يكون الأذان ثمرة أولى من ثمار الاستراتيجية الدقيقة التي اتبعها رسول الله ﷺ، فهو ثمرة من ثمارها وهو في ذات الوقت خطوة محسوبة من خطواتها:

- فهو ثمرة لأن رسول الله ﷺ كان يتمنى أن يرفع الأذان في مكة ويقيم كل شعائر الإسلام هناك عند البيت العتيق، ولكن قامت في وجهه قوى الجهل والتخلف والوثنية، واستماتوا في مقاومة هذا الدين الجديد، حتى أصبح إعلان هذا الدين من أحد الأفراد نذيراً بإنهاء حياته، لا بد هنا فكر رسول الله ﷺ فى أمرين:

الأول: كيف يبلغ الرسالة[١] ؟

الثانى: كيف يخضع سكان مكة نفسها لشرع الله تعالى ويحرر البيت من قبضة الكفر الحديدية؟ وكانت بيعة العقبة الأولى: للبحث عن مكان تقام عليه دولة الإسلام المخرجة للقيادة: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»- والمرشحة للسيادة، وكانت بيعة العقبة الثانية: على الحرب لنصرة دين الله تعالى ثم الميثاق أو الدستور الذى وضعه ﷺ للمدينة.

وابن إسحاق يروي خبر الأذان بفهم عميق لمجريات الأمور، ولأبعاد المستقبلية فى المنهاج الإسلامي فيقول:

(١) التبليغ هنا يعنى بناء أمة جديدة تقيم مشروع الله تعالى في أرض الله ـ تعالى ـ وليس معناه إلقاء الخطب والمواعظ كما يفعل كثير من الدعاة الآن.

«فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار واستحكم أمر الإسلام، قامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحيُّ من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والإيمان»(1).

إذن وجدت الأرض التى يتحول عليها الإسلام من فرض نظريّ إلى واقع عملي، ومن هنا كان الأذان ثمرة من ثمار التخطيط المستقبلي فى الإسلام، وهو خطوة من خطواتها:

والأذان خطوة من خطوات المستقبلية إنه شعار الأمة الحي، فلا بد أن تصارع الأمة غيرها من أجل أن يكون الله أكبر من كل شيء، والله أكبرهو اللواء الذي سوف يسير تحته الجيش الإسلامي والأمة الإسلامية طوال العصور، ثم إن الأذان هو شعار الصلاة، وبناء المجتمع على الصلاة، والطهارة يعني مستقبليًا بناء أمة من الأشراف الأقوياء الذين يجعلون مرضاة الله تعالى فوق كل شيء.

والغلبة التي هدفها الدنيا تنطفئ جذوتها بسرعة لأن هدفها قريب ودنيوي، والغلبة التي هدفها أن يكون الله أكبر ودينه أكبر، وشرفه أكبر، وهذه الغلبة تدوم متجددة بدوام أمة الأذان، أمة الصلاة أمة الزكاة، أمة فرض الحلال والحرام، وإقامة الحدود وإذا كانت الصلاة فى الأمة المهزومة تعني العبادة والترقي الروحي. فهي فى الأمة المنتصرة تعنيعن

(1) سيرة ابن هشام ٢/ ١١١.

الوقود المتجدد لنشر دعوة الإسلام، وسيادة الإسلام على كل الشرائع، وسيادة المسلمين على كل الناس، لقد كانت الصلاة في المدينة في مسجد رسول الله ﷺ، وخلف إمامته الشريفة، تعليماً للغلبة فى الحياة، ووصلاً برب الحياة، ولم تكن الصلاة عندهم «أقوالاً وأفعالاً» كما هيَ عندنا الآن بل كان النظام والعاطفة في صف الصلاة، هما النظام والعاطفة في صف القتال، وكان العمل للآخرة عندهم يعنى من باب أولى - العناية، والعمل، والتخطيط لما ينفع الناس ويطور الحياة، وكانوا يصلون، ويزرعون ويقاتلون، ويستنطقون أرض الله تعالى لتبوح بسرها المكنون، والذى يُعْطَى لكل باحث مثابر، ويمنع عن كل متكاسل متكابر، من أجل كل ذلك كانت الصلاة خطوة من خطوات المستقبلية الإسلامية في مدينة رسول الله ﷺ.

و- المستقبلية فى تعسكر الجيش فى بدر:

اختار رسول الله ﷺ مكانا في بدر ونزل عنده، ولكن هذا المكان لم يكن من الوجهة المستقبلية نافعًا، وأشار عليه أحد أصحابه بمكان مستقبليّ آخر، وعلى الفور وافق رسول الله ﷺ، يقول ابن هشام:

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم (القرشيين) إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر، نزل به.. فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل : أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فتنزله ثم تغور ما وراءه من القلب ثم تبنى عليه حوضًا فتملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ ، لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم ، نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت(١) وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فى الآنية.. وقال سعد بن معاذ يا نبي الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم بُنيَ لرسول الله ﷺ عريش - فكان فيه(٢).

فى النص السابق أسس مستقبلية توضح تلازم الفكر المستقبلي مع سير الأمة الإسلامية منذ البداية وأنه كان هو الفكر الغالب ويتضح ذلك من عدة وجوه:

(١) قلب: جمع قليب، بئر قديم.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٩١ , ١٩٢.

١- أن رسول الله ﷺ كان هو قائد الجيش في غزوة بدر، وهو الذي يتلقى الوحيَ من ربه سبحانه وتعالى، وهو الذي تتعلق به أفئدة المسلمين، وهم مقبلون على إحدى الحسنيين، وكان يجب لكل هذه الاعتبارات أن يكون رأيه نافذًا ونهائيًا، فمن له بعد رسول الله ﷺ رأيٌ، ونزل رسول الله ﷺ بالناس عند أدنى ماء من بدر وترك أمامه كثيراً من آبار المدينة، وكان المفروض أن يكون هذا هو المنزل النهائي للقوم ـ رسول الله ﷺ والذين معه.

٢- نظر الحباب بن المنذر لما سيحدث في المعركة ووازن بين الأماكن المختلفة، ووجد أن المنزل الذى نزله رسول الله ﷺ ليس بمنزل؛ لأنه لا يدخل عنصر المياه ـ على أهميته فى المعركة ـ ولكنه احتاط لنفسه وسأل رسول الله ﷺ.. إن كان هذا المنزل بوحيٍ من الله تعالى ، فالله يعلم غيب السموات والأرض، وليس لنا مع أمره اختيار وإن كان الله تعالى قد ترك لنا ندبر ونديرمعركتنا(١). ونخطط كيف نشاء، وجمع ذلك في قوله : أم هو الرأى والحرب والمكيدة وهنا أشار بتغيير المكان والانتقال إلى أقرب ماء من القوم ووافقه رسول الله ﷺ على ذلك.

٣- أن الحباب بن المنذر خطط لمعركة إذا قامت ومعظم الآبار فى جانب العدو، وحدث تقهقر من المسلمين، بعيدًا عن الماء، فى

(١) لو قلت لمسلم فى الوقت الحاضر ـ مظهراً التدين - اترك الأمر لله تعالى لأذعن متواكلا ولكن الصحابة كانوا يخططون ثم يتوكلون ولا يتواكلون .

عرض الصحراء فإن المعركة عمليا تكون قد انتهت لصالح العدو مهما حدث بعد ذلك من نزال وقتال، ولو احتل المسلمون أماكن الآبار وغوروها وبنوا بئرًا كبيرًا يشربون منه، فإنهم سيقاتلون عدوا لا يجد ماء يشربه في لظى الصحراء، وكلما شدوا عليه ابتعد كثيراً عن الماء، وكل ذلك ترسمه الحباب في رأسه قبل أن يحدث بساعات طويلة فى الواقع، ومسلم اليوم يقول لك إننا سنحارب لله تعالى ولنشر الإسلام، والله يُدبر لنا كل الأمور، وهيَ كلمات حق يراد بها عدم التخطيط، وبرهانه التكاسل والتواكل، لقد قامت المعركة في رأس الحباب قبل أن تقوم في الواقع وخطط لها وأقره النبيّ ﷺ على ذلك.

٤- لقد اعترض الحباب على المنزل الذي نزله الرسول ﷺ ، واختار منزلا آخر، وقد هداه إلي ذلك فكره الحر ورؤيته المستقبلية، والمرء يتحير حين يطالع ذلك ويرى كثيراً من العلماء يدركون أن فى بعض ما قاله القدماء كلاما لا وزن له، ولا نفع فيه، ومع ذلك ينقلونه بخشوع عظيم، ولا يعلقون عليه إلا بما يسوغه للناس، ولايمنعهم عن نقده إلا أنه قد قاله القدماء، ويرى المرء كثيراً ممن يسمون أنفسهم بالمريدين في الطرق الصوفية لا يجدون إلى نقد مشايخهم سبيلا، وهم يرون منهم كثيراً من الأخطاء، ولكنهم يؤولونها دائمًا تأويلا يخرجها عن الخطأ، ويثبت الإلهام لصاحبها،

ولو فعل الحباب بن المنذر كما يفعل هؤلاء المريدون لهلكت عصابة الإسلام الأولى واجتثت من أساسها.

٥- لم يقف الصحابة في وجه الحباب ويمنعونه عن الاعتراض بل ترك للتعبير عن رأيه بحرية تامة لأنهم رجال يحترمون الرأى الصحيح ولو كان مخالفًا لما تصوروه صوابًا، ولما نظر إلى المستقبل وأقره النبيُّ الكريم ﷺ على نظره لم يعترض أحد ويخرج برأي آخر يسفه فيه رأي الحباب ولو من باب الحسد، والكيد لمستقبلية الحباب لم يحدث هذا أبدًا رغم أنها مسألة حياة ومصير.

رأى سعد بن معاذ:

يتسم رأى سعد بن معاذ بالمستقبلية البعيدة في الزمان والمكان على السواء، فهو لم يفكر في جو المعركة، أو الأيام التي ستستغرقها كما فعل الحباب بن المنذر ولكنه نظر فى سيرة الدعوة الإسلامية تنساح في أرض الله تعالى في الزمان البعيد الذي لا يحد إلا بالقرون، ورأى أن ذخيرة الإسلام، ووقوده، وهو قلبه، وفؤاده، ورأى أن هذا المرتكز لو سقط فلن تقوم للدعوة الإسلامية قائمة، لأن الإسلام لم يكتمل بعد، ورأى أن رسول الله ﷺ هو قوة المسلمين الأولى الرئيسية، وأن الذي يضحي بقوته الرئيسية في أول معركة يكسبها، أو يخسرها فإنه من الناحية المرحلية والمستقبلية (التكتيكية والاستراتيجية) لا يكون مصيبًا فى تخطيطه، ولا محددًا الهدف النهائي، ووجد أن بقاء رسول الله ﷺ مع

فنـاء هذه الـعصابـة المـسلمـة فى بدر، هـو بقـاء للإسلام عـلى الـمدى القـريب، ثم وجـد أن رسول اللـه ﷺ مصمّـم علـى أن يتبـوأ مكانـه فى الصفـوف الأولى من الجيـش ولـم يكـن ذلك صواباً عـند سعد بـن معاذ فعرض رأيه على رسول الله ﷺ هكذا:

يا نبى الله ألا نـبني لك عريشًا تـكون فيه(١) ونعد عـندك ركائبـك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنـا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخـرى جلست على ركـائبك، فلحقـت بمن وراءنا فقد تـخلف عنك أقوام، يا نبيّ الله، ما نحن بأشد لـك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفـوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحـونك، ويجاهدون معك، فأثنـى عليه رسـول الله ﷺ خيـرًا، ودعا له بخـير، ثم بُنِـيَ لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه(٢).

أدرك سعد بن معاذ أن رسول الـله ﷺ يعتبر هدفًا نهائيًا (اسـتراتيجياً)، بالنسبة للمسلمين لأنهم ما زالوا فى حاجة إليه لبناء أمة الإسلام العظيمة، وبالنسبة للعدو من المشركين لأنهم يريدون بقتله القضاء على هذه الأمة الفتيـة، ومن هنا كان حرصه عـلى حياة رسول اللهﷺ ، ووضـح له كيف يتخلـص من المعركة فـي حالة الهزيمة، لـيستمر في بـناء الأمة، وإعداد العدة لمقابلة المشركين في معركة أخرى.

---

(١) عريشًا: مكان للقيادة خلف الجيش وهو ما عليه عمل الجيوش فى الحرب حتى الآن.

(٢) سبق نظيره.

والجدير بالملاحظة أن الرأيين الاستراتيجيين في معركة بدر، رأي الحباب بن المنذر «السيطرة على الماء» ورأي سعد بن معاذ «الحفاظ على هدف الأمة النهائي في ذلك الوقت». هذان الرأيان لم يأتيا عن طريق الوحي المباشر، أو غير المباشر كالإلهام مثلا، إنما كانا رأيين بشريين عاديين(١).

وكان هذا درسًا لنا لنعلم أن على الإنسان أن يفكر بنفسه كيف يتفوق في الحياة، يخطط ويدبر والله تعالى يساعده، بعد ذلك، كما يجدر بالملاحظة موافقة رسول الله ﷺ المباشرة والمشفوعة بالثناء، والدعاء بالخير للذين يفكرون في المستقبل ويخططون له، وهي ملاحظة لو تعمقنا في فهم مراميها لتغير حالنا الآن، فبين ظهرانينا أناس يعتبرون التفكير في المستقبل ضعف إيمان، وعدم ثقة بقدرة الله تعالى ويعتبرون الغيب لله تعالى ويتحرجون من أي تفكير فيه وشعارهم المعروف: (لا تدبر لك أمرا إن أولي التدبير هلكى)، وما زال يتردد هذا القول حتى أصبح يشبه العقيدة الثابتة عند هؤلاء، ولعل موقف الحباب بن المنذر، وسعد بن معاذ في بدر أكبر رد على هؤلاء ومن ينهج نهجهم في الحياة.

---

(١) وما أحوجنا إلى أن ندرك واجبنا في الإعداد لمواجهة العدو رغم اعتمادنا الأول والأخير على الله ـ تعالى ـ لا أن نحيل تقصيرنا وضعفنا وتهاونا على القدر، ونبكي على عدم نصر الله تعالى لنا، ونحن المسئولون عن ذلك – منير محمد الغضبان ـ المنهج الحركي للسنة النبوية ص ١٨٩ ط مكتبة المنار ١٩٨٩م. طبعة رابعة.

دعاء رسول الله ﷺ بالنصر في بدر:

في هذا الدعـاء نظرة ثاقبة لـلمستقبل الـبعيد فقد أعـد رسول الله ﷺ أصحابه أحـسن إعداد وجعلهـم مرتكزات الإسلام المـستقبليـة، وحشد أغلـبهم وأقـوى عنـاصرهم فـي بدر ورآهم - كـما رأوه مـن قبل - هـدفًا استراتـيجياً للإسـلام، ورأى في هلاكهم هـلاكًا لهذه الدعـوة، وركز في دعائه على هذه النقطة بالذات فقال ﷺ :

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

وهذا الدعاء لـيس قابلا للتأويل، فـألفاظه واضحة ومعانـيه أوضح من ألفاظه، وهـو يقال لمن يعـلم السر وأخفى ويـعلم الماضي، والـحاضر، والمستقبل، إذن فهو يقول لربـه: هذه ذخيرتي وعدتي لبناء أمة الإسلام ، وإن تهلكها فلن تعبد بعد ذلك؛ لأنها الرسالة الخاتمة والأمة التي ارتضى الله تعالى أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

***

الفصل الثالث

المستقبلية

عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عند دراسة المستقبلية الاستراتيجية عند المسلمين بعد رسول الله ﷺ، تبرز الفترة التي عاشها صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ، وكيف حملوا لواء الإسلام، واندفعوا يجوبون العالم شرقًا وغربًا ويخططون في نفس الوقت لمستقبل الإسلام، ويضعون الأسس القوية لذلك.

وفضل أصحاب رسول الله ﷺ وفكرهم المستقبلى لا يمكن أن يحصي عن طريق هذه الدراسة التي تركز على الخطوط العامة للمستقبلية عند المسلمين ولذلك ستتجه الدراسة إلى دراسة المستقبلية عند الخلفاء الراشدين، ومن خلال دراسة المستقبلية عندهم، سوف تبرز صورة المستقبلية واضحة بعد رسول الله ﷺ وسوف يتضح لنا أنها ليست نهجًا زمنيًا، ولكنها سلوك إسلاميٌّ، تتحقق من خلاله رسالة الإسلام في الإرشاد والهداية، ورسالة الإنسان في الخلافة والعمارة.

١- أبو بوكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ :

عندما تولى أبوبكر الصّديق ـ رَضِيَ الله عنه ـ واجه عدة مشاكل تصفها السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها بقولها: «لما توفى رسول الله ﷺ، اشرأب النفاق، وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، فما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بغنائها وفضلها[1].

هذه الكلمات على قلتها وإيجازها توضح الحالة العامة التي كانت

(١) الإمام السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٧٣ ط مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

عليها جماعة المسلمين عند تولى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، ولكنه مع هذا نجده قد تصدى لكل مشكلة وعالجها في ضوء الرؤية المستقبلية وربط بينها برباط المستقبلية المدروس، فغير مشكلة الارتداد، كانت هناك مشكلة إنفاذ جيش «أسامة» الذى أمر بإنفاذه رسول الله ﷺ ، وسنبدأ بهذه المشكلة لنرى كيف كانت تدار دولة الإسلام بوعي مستقبلي «استراتيجي» جعلها تتفوق على خصومها، وتثبت أقدامها في الأرض بعد فترة وجيزة من انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

إنفاذ جيش أسامة:

جهز رسول الله ﷺ جيشًا وجعل قيادته لأسامة بن زيد، وذلك للتوجه إلى الشام ثم توفيَ رسول الله ﷺ، وجيش أسامة خارج المدينة ينتظر الأمر بالتحرك إلى مبتغاه وسوف نترك لابن الأثير تصوير الجوّ العام للمدينة وللصحابة وكيف كان خلافهم على الرؤية المستقبلية وكيف كانت رؤية أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، هي التي تؤسس للمستقبل بميزان دقيق، يقول ابن الأثير:

فتوفي النبى ﷺ ولم يسر الجيش، وارتدت العرب إما عامة، أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق، واشرأبت يهود والنصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة ـ لفقد نبيهم وقلتهم، وكثرة عدوهم، فقال الناس لأبي بكر : إن هؤلاء ـ يعنون جيش أسامة ـ جند المسلمين والعرب ـ على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة

المسلمين عنك، فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبيّ ﷺ، فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة لمعسكره بالجرف، فخرجوا كما أمرهم، وجيش أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة فى ديارهم، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل.

فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر ابن الخطاب، وكان معه فى جيشه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال :

«إن معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، والمسلمين أن يتخطفهم المشركون، وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب: إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا، أقدم سنًا من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر رضيَ الله تعالى عنه ، فأخبره بما قال أسامة، فقال : لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذنه كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذنه، قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه :فإن الأنصار تطلب رجلا أقدم سنًا من أسامة؟ فوثب أبو بكر، وكان جالسًا، وأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله.

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ـ فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليَّ إلا أن أغبر قدميَّ ساعة فى سبيل الله سبحانه وتعالى فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تمحى عنه.

فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إنِ رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له، ثم وصاهم (أبو بكر) فقال:

لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً أوتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً (إلا لمأكلة) وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فأخفقوهم بالسيف خفقًا، اندفعوا باسم الله سبحانه وتعالى.

وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ، فسار وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوما، وقيل سبعين يوما(١).

التحليل المستقبلى للنص:

بعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وارتداد العرب أصبح المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، كما يصفهم ابن الأثير، وأشار

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٣٣٤, ٣٣٥ ط دار صادر بيروت ١٩٦٥م.

بعض الصحابة على أبي بكر رضي الله تعالى عنه بعدم إنفاذ جيش أسامة، ورده إلى داخل المدينة، وكانت رؤيتهم مستقبلية، ولكنها غير صحيحة، فقد كانوا يرون أن التدهور في أحوال العرب بعد وفاة النبي ﷺ لا يؤمن معه إرسال هذا الجيش وترك المدينة من غير حراسة كافية، وأن قوة المسلمين يجب أن تكون في تماسكهم وقوة جبهتهم الداخلية، وهي نظرية «استراتيجية» لها مكانتها إلى الآن في الفكر العسكري، وكانوا يرون أيضًا: أن إنفاذ هذا الجيش وفيه خيرة الجند والقواد، هو تفريغ لقوة الدولة متمثلة في عاصمتها مدينة رسول الله ﷺ وهذا ما يسمى فى العصر الحديث بنقل الاحتياطى «الاستراتيجي» ودفعه إلى الأمام، وكثيراً ما أدى هذا إلى التفاف العدو، وتمكنه من فتح الثغرات فى الداخل.

وشارك أسامة نفسه في هذا التوجه إذ أرسل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس لأن معه وجوه الناس وحدهم وأنه يخشى على الخليفة وعلى حرم رسول الله ﷺ، ولكن أبا بكر رضي الله تعالى عنه رفض هذا وذاك، لأنه كان يعرف كيف يسد الثغرة التى يعولون عليها، وهي خلو المدينة من القوات التي تحميها، وذلك بالتجنيد والتدريب، والاستعداد، وهذا أمر يملكه الخليفة.

(١) يشبه هذا إلى حد كبير ماحدث فى حرب ١٩٧٣ عندما عبرت القوات المكلفة بالحراسة من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية للقناة وأعطى هذا للعدو الفرصة لكى يفتح الثغرة ويتسلل منها إلى خلف القوات المسلحة المصرية.

وكان الرأي المستقبلي الراجح عند أبي بكر هو أنه مع ارتداد العرب، واضطراب الأمور، فلا بد من إظهار قوة الدولة، ورهبتها، لأن الدولة بلا قوة مظهرة، لا تستطيع أن تسيطر على هذا التدهور العام وهذا ما استقر عليه الفكر «الاستراتيجي» الحديث وهو مبدأ «أن الهجوم خير وسيلة للدفاع».

وقد عرف هذا المبدأ بأنه «مبدأ نابليون» إلا أن القرآن الكريم الذي يغترف أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه من نبعه الصافي سبق كل أصحاب الفكر العسكري «الاستراتيجي» ووضع هذا المبدأ وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[الأنفال: ٥٦:٥٧].

فالآية: تقول طالما أن هناك قوما لا يحترمون العهود فإن ضربهم بشدة سوف يخيف أمثالهم ويمنع كثيراً من القتال، وهذا هو ما ذهب إليه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وكان لإنفاذ هذا الجيش أثر بالغ في مستقبل المسلمين وإحكام سيطرتهم على جزيرة العرب كنقطة انطلاق نحو تكوين أمة الإسلام وسيطرتها على العالم المعمور، ولقد لاحظ ابن الأثير هذا البعد «الاستراتيجي» في فكر القائد أبي بكر ولذلك عقب على هذا النص بقوله:

وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعًا للمسلمين، فإن العرب

قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه[1].

وهذا تحليل دقيق للمؤرخ المسلم ابن الأثير ويجب أن يكتب التاريخ ويقرأ على هذا النحو، ولقد أدرك الجميع بعد إنفاذ جيش أسامة ما لهذه النظرية من بعد فى الزمان وشرف في المكان، وعلو في المكانة.

والأثر الثاني لنظرة سيدنا أبي بكر المستقبلية هو أنه بخروج كل القوات لملاقاة العدو فى جيش أسامة، وشعور سكان المدينة بالخوف من اضطراب العرب فإن هذا الشعور بالخوف سيدفع قطاعات كبيرة من الشباب والشيوخ إلى سد هذه الثغرة في أمن المدينة ومن هنا سيتكون تلقائيًا جيش ثان، يملك نفس العقيدة ونفس الأمل في نشر دعوة الإسلام، وهي نظرة مستقبلية صائبة في كل أهدافها المرحلية والمستقبلية على السواء.

الخلاف على سن القائد:

وكان اعتراض من الأنصار على سن القائد أسامة بن زيد، وأن يغيره بمن هو أقدم منه سنًا، ونقل ذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى سيدنا أبى بكر رضي الله تعالى عنه فقال له : «ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرنى أن أعزله»!!

ولكن يبقى سؤال:

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٣٣٦.

- هل رفض أبو بكر رضيَ الله تعالى عنه عزل أسامة لأن رسول الله ﷺ استعمله؟.

وهل هذا هو السبب؟

نعم: هذا هو السبب الظاهر، ولكن وراء هذا السبب سر يكشفه إصرار النبيّ ﷺ وإصرار أبي بكر رضي الله تعالى عنه على قيادة أسامة، وهذا السر والله تعالى أعلم هو شباب أسامة وحداثة سنه، لأن الشباب هو المستقبل، والأمة وقتها كانت متطلعة إلى المستقبل بكل كيانها، فهو يمثل المستقبل وينفذ خطة لتأمين مستقبل الإسلام، وهذا التقليد الكريم لو أتيح له التطبيق فى بلاد الإسلام فى العصور التالية، لأنتج تقدمًا كبيراً في كل المجالات، ولكن ما حدث في عصور الانحسار هو غلق الباب في وجه الشباب بحجة أنهم لا يملكون الخبرة الكافية، وجعل العلم والمعرفة والقيادة حكرًا على الشيوخ، وهذا النظام يدحضه إنفاذ جيش أسامة بن زيد، وهذا الفكر ليس إسلامياً - وإن ارتدى عباءة الإسلام - لأن إعطاء القيادة للشباب يفتح الأمل لهم فى المستقبل، ويبذلون كل جهد نحوه، والشباب بتكوينه يميل إلى الاقتحام والمجازفة وهما من عناصر التفوق الأولية.

تكريم العسكرية الإسلامية:

العسكرية الإسلامية هي التي قامت بترسيخ سلطان الدولة فى جزيرة العرب، ونشر سلطانها خارج هذه الجزيرة، ومع انتشار سلطان دولة

الإسلام العادل انتشـرت في ظله عقيدة الإسلام السمـحة، ولذلك أرسى سيـدنا أبو بكـر مبدأ حول إعـلاء شأن العـسكرية الإسـلامية حيـن خرج لوداع جيش أسامـة بن زيد، وهو ماش على قدميه، وعـن ذلك يقول ابن الأثير:

ثم خـرج أبو بكـر حتـى أتاهم وأشـخصهـم، وشيـعهم، وهـو ماش، وأسامة راكـب: فقال له أسـامة يا خليـفة رسول اللـه لتركبـن أو لأنزلن: فقال: والـله لا نزلت ولا أركـب، وما عَلَيَّ إلا أن أغـبر قدمي سـاعة في سبيل الله .

وهذا رفـع لشأن الجـهاد، وبناء لـلعزة فـي نفس القـائد الشاب حـتى يستطيع أن يقود ويغزو باسم الله ـ تعالى ـ(١).

تحطيم إرادة العدو والمحافظة على أخلاقيات الإسلام:

ليس معنى «الاستـراتيجية» العسكرية إبادة العدو المـحاربين وغيرهم ولكنها تتجلى في تحطيـم إرادة العدو، والجيش الإسلامى لـم يكن هدفه تدمـير الحـياة، بل كـان هدفه تطـهير الـحياة، ولـذلك كان لا بـد من أن يحارب هذا الجيش، ومع ذلك يترك أثـرًا يظهر شرف المقصد، وطهارة المسـلك، وتكون هذه هـي «المستـقبلية» الـتي ستساعـد على السـيطرة

(١) لم يعد لهذه التـقاليد العزيزة وجود فى كثير مـن المجتمعات الإسلامية بل أصبـح القائد الأعلى درجة لا يرضى ممن هو دونه بأقل من المهانة والصغـار حتى يرضى عنه ويعتبره مواليًا له، ولقد تفشى هذا في كـثير من القيادات العسكريـة والمدنية على السواء، حتى وصـل إلى المؤسسات الدينية نفسها التي يعتبر التواضع شعارها الوحيد.

والانتشار ويتضح ذلك من قول أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - لجيش أسامة:

«لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة؛وسوف تمرون بقوم قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فأخفقوهم بالسيف خفقًا ، اندفعوا باسم الله سبحانه وتعالى».

فقتال المسلمين ليس لغرض الدين، وإنما هو للتخلية بين الناس، وبين عقيدة التوحيد الصحيحة، ولذلك أمرهم بأن يتركوا المتعبدين في صوامعهم فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. ولكنه أمرهم أن يخفقوا رءوس أولئك المستعدين للقتال، بوضع العصائب فوق الرءوس، وفى هذا النص ترى أن سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه يوطىء للإسلام مستقبلا كبيراً، بهذه الأخلاقيات التي تراعى وقت الحرب، ونزال العدو، ومن هنا كان إنفاذ جيش أسامة من أوله لآخره فكراً مستقبليًا ثاقبًا.

٢- حرب الردة:

كانت حروب الردة هي المشكلة الثانية التي واجهت سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ولم تكن مشكلة هينة كما يتصور البعض، بل كانت تشبه انهياراً شديداً لنظام دولة الإسلام التي أسسها رسول الله ﷺ، ولكن هيهات فقد ترك رسول الله ﷺ وراءه من يحمل منهجه

ويسير به، منهج التخطيط، والرؤية البعيدة التي تتجاوز الزمان والمكان، وهذه الرؤية المستقبلية لأبي بكر الصديق هي التي أنقذت المسلمين مما حل بهم من فتن، سوف نطلع عليها بعد قليل، وقد كان رأيُ البعض القعود عن قتال المرتدين، ولكنهم كانوا يجهلون ما يترتب على ذلك من قضاء على دولة الإسلام، وقال عبد الله بن مسعود:

لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله تعالى مَنَّ علينا بأبي بكر ، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض، وابنة لبون، وأن تأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله تعالى لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضيَ منهم إلا بالخطة المخزية، أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية: فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار، ومن قتل منا فى الجنة وأن يدوا قتلانا، ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم(١).

فى هذه الفقرة يبين لنا سيدنا عبد الله بن مسعود رأياً كان سائداً عند البعض، وهو القعود والتفويض، ليقوم الرحمن بمهمة الإنسان، ولو ترك سيدنا أبو بكر الأمور للناس لتم القضاء على الأمة الإسلامية فى بكورها، ولكنه نظر إلى المستقبل البعيد ورأى إعمال السيف فى الناس حتى يفيئوا إلى أمر الله تعالى ويذعنوا لأحكام الإسلام، ونظام الدولة الجديدة ولذلك عرض عليهم الخطة المخزية أو الحرب المجلية، فلا

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢/ ٣٤٢.

مهادنة مع الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، ثم عادوا إلى مرتكس الكفر الآسن، لقد ظهرت الأحقاد على الإسلام بعد موت النبيّ ﷺ وأصبحت جزيرة العرب في اضطرام واحتدام.

ـ أخبار الـــــردة:

يقول ابن الأثير : لما مات النبيُّ ﷺ، وسير أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرمت الأرض نارا وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشًا وثقيفًا، واستغلظ أمر مسيلمة، وطليحة، واجتمع على طليحة عوام طيىء، وأسد وارتدت غطفان تبعًا لعيينة بن حصين، فإنه قال : نبيٌّ من الحليفين يعنى: أسد، وغطفان، أحب إلينا من نبيّ من قريش وقدمت رسل النبى ﷺ ، من اليمامة وأسد، وغيرهما، وقد مات النبي ﷺ، فدفعوا كتبهم لأبى بكر، وأخبروه الخبر عن مسيلمة وطليحة، فقال لا تبوحوا حتى تجىء رسل أمرائكم، وغيرهم بأدهى مما وصفتم، فكان كذلك، وقدمت كتب أمراء النبي ﷺ، من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة، وتسلطهم على المسلمين(١).

لقد تجيشت الجيوش بسرعة فائقة بعد وفاة النبى ﷺ وأخذت مواقعها للانقضاض على الإسلام، ولو سمع سيدنا أبو بكر من نظر إلى اللحظة الآنية، ولم ينظر إلى المستقبل لانقض هؤلاء المرتدّون على دولة الإسلام وأفنوها تماماً فقد : «مات رسول الله ﷺ ، واجتمعت أسد

(١) المصدر السابق ص ٣٤٢، ٣٤٣.

وغطفان، وطيىء على طليحة، إلا ما كان من خواص أقوام في القبائل الثلاث، فاجتمعت أسد بسميراء، وفزارة، ويليهم غطفان بجنوب طيبة، وطيىء على حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن سعد، ومن يليهم من مرة، وعبس بالأبرق من الربذة، وتأهب إليهم ناس من بني كنانة، فلم تحملهم البلاد، فافترقوا فرقتين، فأقامت فرقة منهم بالأبرق، وسارت الأخرى إلى ذي القصة من بنى أسد، ومن تأهب إليهم من ليث، والديل، ومدلج، وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان، وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان، وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة، فنزلوا على وجوه الناس، فأنزلوهم ما خلا عباساً، فتحملوا بهم على أبي بكر، على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة . فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال : لو منعونى عقالا ـ حبلا ـ لجاهدتهم عليه، وكانت عقل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة ـ فردهم فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم، فأخبروا عشائرهم بقلة من أهل المدينة، وأطمعوهم فيها، وجعل أبو بكر ـ بعد ما خرج الوفد ـ على أنقاب المدينة نفراً، وعليًّا، والزبير، وطلحة، وعبد الله بن مسعود وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، وقال لهم إن الأرض كافرة ـ أيْ مظلمة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وأنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا ، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا

المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا لهم ردًا، فوافق الغوار ليلاً الأنقاب، وعليها المقاتلة، ودونهم أقوام يدرجون، فنبهوهم، وأرسلوا إلى أبى بكر بالخبر فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم، وخرج فى أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو - انهزم - فأتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذى حسى فخرج عليهم الرّد بأنحاء قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها - دفعوها - بأرجلهم فى وجوه الإبل، فتدهده كل نحيٍ فى طوله، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها - ولا تنفر الإبل من شىء نفارها من الإنحاء فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة فلم يصرع مسلم، ولم يصب[1].

- استطاع العلامة ابن جرير الطبريّ أن يضع المقدمات ويرتب عليها النتائج فى هذا النص، فقد اتضحت الرؤية المستقبلية «الاستراتيجية» لأبي بكر، فهو كان يرى أن ترك المرتدين بدون قتال لن يصدهم عن هدفهم الأساسي وهو القضاء على دولة الإسلام، وفى النص السابق اتضحت دقة ترتيبهم القائم على خطة محكمة لغزو المدينة وجيش أسامة غائب عنها والجدير بالذكر أن سيدنا أبا بكر كان يقرأ المستقبل بوضوح ويتعامل معه بدقة وسرعة بالغتين، فبعد خروج الوفد من عنده- وبرغم عدم إعلان الحرب - جمع الناس فى المسجد وأخبرهم أن العدو على مسافة بريد منهم - أي مسافة قريبة - ووضع الحراسة على المدينة

(١) ابن جرير الطبرى: تاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٣ , ٢٤٤ط دار المعارف - بدون تاريخ.

من كل ناحية، وأخبرهم أن يعدوا ويستعدوا وحدث ما تنبأ به فى المستقبل، ونجحت خطته فى الدفاع عن المدينة التى وضعت للمستقبل، ويلاحظ أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان يحرس ناحية من المدينة رغم أنه كان من الذين قالوا لا نقاتل على بنت لبون ونقعد، ونعبد ربنا حتى يأتينا اليقين، ولعله أدرك عمق النظرة المستقبلية لأبي بكر بعد أن هوجمت المدينة ليلا، غير أن الصحابة كانوا يختلفون في الرأي ولكنهم يتفقون على الرؤية، ولم يفعلوا كما نفعل الآن حين نقف مع وعند الموقف الفلسفي، ولا نبرحه إلى الموقف العملي التلقائي بل نظل نردد في الموقف الفلسفي حتى نعتقده، وحتى يمتزج بدمائنا ويصبح صبغة لفكرنا ونكابر كل من يريد أن يزجرنا عنه، ولكن ابن مسعود ـ رضيَ الله عنه ـ لم يمنعه رأيه من أن يبصر ويرى ويحدد طريقه فى ظل رأي ورئوية أبي بكر المستقبلية المنيرة.

رأى عمر بن الخطاب فى حروب الردة:

كان لعمر بن الخطاب رأي يتعلق بقتال المرتدين وكان فى رأيه هذا ـ رغم عدم قبول أبي بكر له ـ يرى أنه من دواعي تأمين المستقبل للإسلام ودولته الفتية، يجب ترك قتال مانعي الزكاة حتى لا تقاتل الدولة نفسها وتقتل أبناءها، وتترك العدو الخارجي، وتتفرغ للفتنة الداخلية وذهب إلى أبي بكر وقال له:

«كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ ـ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر:

«والله لأقتلن مـن فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكـاة حق المال، وقد قال إلا بحـقها» فيقـول عمر بن الخـطاب «فوالله مـا هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق»(١).

ويقول الأستاذ عباس العقاد عن رأي سيدنا عمر فى حروب الردة:

ومسألـة الردة قد كان لـها وجه آخر، غـير الذي رآه أبو بـكر رضي الله تعـالى عنه ، وكـان عمر خـليقًـا أن يرى ذلك الوجـه الآخر، لأنه مـوافق لمجمل آرائه فى الحرب والسياسة فقد كان بطيئًا إلى الحرب، كما عرفنا من عـامة وصـاياه وكان أبـطأ ما يـكون عـنها إذا نـشبت بـين الـعرب أو المسـلمين وكان جيـش الإسلام بعيداً عن الـمدينة في غزوة الـروم التي خرج بـها أسامـة بن زيد بعـد قيام أبـي بكر بـالخلافة، فـالتريـث إلى أن يستكمل الإسلام عـدته، ويسترجع الغائبين من جنـده وجه غير ضعيف - أو هو فى أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول(٢).

هذا ملخص رأي الأستاذ العقاد فى رأي عمر رضى الله تعالى عنه في حروب الردة، وهى نـظرة للمستقبـل لها دلالتها ورجحانـها، ولكن رأي أبي بكر كان أرجح لأنـه كان ينظر أيضًا إلى المستـقبل من زاوية أخرى، هي زاوية هيبة الدولة، وقوتها بين خصومها الظاهرين، وغير الظاهرين.

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ الطبـرى، والكامل في التاريخ لابن الأثير وأبو بكر الصديـق لمحمد حسين هيكل ص ٩٦.

(٢) عبقرية عمر للعقاد ص ٢١٩ , ٢٢٠.

يقول الأستاذ محمد حسين هيكل عن رأي أبي بكر رضى الله تعالى عنه ترى ما كان عسى أن يؤول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه في شأن الذين طلبوا منع الزكاة، ووادع هؤلاء الطالبين على ذلك؟ ولا أخالني فى حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه، كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة عهد بالجاهلية والوثنية، فلو أن أبا بكر رضيَ النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات، ولوجد طليحة ومسيلمة وغيرهما من المتنبئين الوسيلة للتشكيك فيما جاء به النبيُّ ﷺ من عند ربه، ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقًا لهم وطيعًا، بل مؤمناً بهم يموت فى سبيلهم وينصرهم على دين الحق.

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبى بكر ثم لانتصاره بذي القصة، من أثر حين نعلم أن المشركين من بني ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، هذه الظاهرة التي دفع إليها الغضب والشعور بالذلة، والانتقام الوضيع، قد زادت انتصار المسلمين جلالاً وزادت المسلمين ثباتاً على دينهم فى كل قبيلة، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله ﷺ، لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه فى حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم، فأيقنوا أن الغلبة لدين الحق والإيمان به، وأن الانتقام الوضيع الذى لجأت إليه القبائل لن يمحوا عنها عار هزيمتها، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غاليًا.

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم.

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله إثر انتصاره بذي القصة، وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صفوان والزبرقان من رؤساء بنى تميم، وعدي بن حاتم الطائي عن قومه من بنى طيىء ، واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرهم في بشر أي بشر، وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم هذا نذير فيقول أبو بكر «بل هو بشير وهو حام ليس بوان» ـ ويجيب الناس أبا بكر يقولون : «طالما بشرت بالخير»(١).

هذه خلاصة النتائج التي ترتبت على نظرة أبى بكر المستقبلية لحروب الردة، ولا نعيب رأي عمر بن الخطاب، بل نقول إن الرأيين اجتهاد فى رؤية المستقبل ترجحت منهما نظرة أبي بكر المستقبلية، فأذعن إليها عمر بن الخطاب وساندها وانخرط جنديًا شجاعاً فى مشروعها، وإلى هنا نكون قد تكلمنا عن أبرز علامات رؤية أبي بكر المذخورية وكيف أتت ثمارها فى حينها وفى كل حين(٢).

(١) محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ص ٩٩، ١٠٠ ط دار المعارف.

(٢) وهو في ذلك يكمل خطة رسول الله ﷺ المستقبلية فقد توجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخطة التى رسمها رسول الله ﷺ، تلك سياسته التي أعلنها يوم بويع والتي سار عليها إلى أن لقيَ ربه - هيكل ص ١٠٣.

عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ :

جاء سيدنا عـمر بن الخطاب رضيَ الله تعـالى عنه ليكمل الـخطة التي رسمها رسـول الله ﷺ وقام على تـنفيذها، ثم جـاء بعده سيدنا أبـو بكر الصديق رضيَ الله تعالى عنه فسار بالـخطة فترة من الزمن، ثم جاء عمر بن الخطاب، ليسير على نفس المنهج ـ نـهج التأسيس للمستقبل البعيد، ووضع أسس الدولة الإسلامية، والإمام السيـوطي رحمه الله تعالى يجمل ما فـعلـه سيدنـا عمـر فى كل سـنة مـن السنـوات التـي ظل فيـها أمـيراً للمؤمنين، وحاكما أعلى للدولة فيقول:« وولي الخليفة بعهد من أبي بكر فى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فقام بالأمر أتم قيام، وكثرت الفتوح فى أيامه.

ففى سنـة أربع عشرة : فتحت دمـشق ما بين صلح وعـنوة، وحمص، وبعلبك صلحا، والبصرة والأيكة كلاهما عنوة، وفى سنة خمس عشرة ـ فتحت الأردن كلـها عنوة إلا طبرية فإنـها فتحت صلحًا، وفـى هذه السنة وقعة الـيرموك والقادسـية، وفيها مَـصَّرَ سعد الكـوفة، وفيها فـرض عمر الفروض ودون الدواوين، وأعطى العطاء على السابقة.

وفى سنة ست عشرة ـ فتحت الأهواز والمدائن وأقام بها سعد الجمعة فى إيوان كـسرى، وهى أول جمـعة جمعت بـالعراق، وذلك فـى صفر، وكان فـيها وقـعة جلولاء وهزم فـيها يـزدجرد بن كـسرى وتـقهقـر إلى السرى، وفـيها فتـحت تكريـت، وفيها سـار عمر ففتح بيت الـمقدس،

وخطب بالجابية خطبته المشهورة، وفيها فتحت قنسرين عنوة، وحلب وأنطاكية،وَمَنْبِج صلحاً، وسروج عنوة، وفيها فتحت قرقسياء صلحًا.

وفى سنة سبع عشرة : زاد عمر فى المسجد النبوي وفيها كان القحط بالحجاز، وفيها كان عام الرمادة، واستسقى عمر للناس بالعباس.

وفى سنة ثماني عشرة : فتحت جند يسابور صلحًا وحلوان عنوة، وفيها كان طاعون عمواس، وفيها فتحت الرها وسميساط عنوة، وحران ونصيبين، وطائفة من الجزيرة عنوة ـ وقيل صلحًا ـ والموصل ونواحيها عنوة.

وفى سنة تسع عشرة : فتحت قيسارية عنوة.

وفى سنة عشرين: فتحت مصر عنوة، وقيل مصر كلها صلحًا إلا الإسكندرية فعنوة، وقال عليٌّ بن رباح : المغرب كله عنوة.

وفيها فتحت تستر، وفيها هلك قيصر عظيم الروم، وفيها أجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران وقسم خيبر ووادي القرى.

وفي سنة إحدى وعشرين : فتحت الإسكندرية عنوة ونهاوند، ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة، وبرقة وغيرها.

وفي سنة اثنتين وعشرين : فتحت أذربيجان عنوة وقيل صلحًا، والدينور عنوة، وما سبذان عنوة، وهذان عنوة وطرابلس المغرب، والري، وعسكر وقومش.

وفي سنة ثلاث وعشرين : كان فتح كرمان وسجستان وكران من بلاد

الجبل، وأصبهان ونواحيها، وفي آخرها كان وفاة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ورحمه رحمة واسعة(١).

في هذا العرض السريع بين لنا الإمام السيوطى كيف كان عمر بن الخطاب يوسع فى دولة الإسلام، لينفذ خطة رسول الله ﷺ المستقبلية، ولم تمض سنة كما رأينا، إلا وفتح فيها بلاداً كثيرة، في قارات متعددة وإذا كان الإمام السيوطي يسرد هذه الأشياء على أنها تاريخ تؤخذ منه العبرة، فإن الأستاذ عباس العقاد يرى أن ذلك كان تأسيساً لدولة الإسلام لضمان مستقبلها البعيد.

رأى العقـــــاد:

يعلق الأستاذ العقاد على أعمال عمر بن الخطاب المستقبلية «الاستراتيجية» فيقول:

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه لأنه وطد العقيدة، وسير البعوث فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب ما صنعه في حرب الردة، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث، وفتح الفتوح. فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمى عمر مؤسسا للدولة الإسلامية بمعنى آخر، غير معنى السبق في أعمال الخلافة لأننا «أولاً» لا نجد مكانا فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظيمة .

(١) الإمام السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ص ١٣١ - ١٣٣ طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

ولأننا من وجهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح، وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام، وأذانه، وأعزها بهيبته، وعنفوانه.

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها.

وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم، وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير، ودعامة الدعائم.

إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أسس، ولم يتسع له الأجل، حتى يفرغ من عمله، وجاء عمر بعده، فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هيَ آية الآيات فيه، وفى ذلك العصر من البداوة البادية.

وبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به، ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية، كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد، وكلاهما عمل لا يفطن إليه إلا من طبع على سليقة التأسيس، وأخذ بها من أصولها، وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن.

وندر فى الدولـة الإسلامية نظام لـم تكن له أولية فـيه، فافتتح تـاريخًا واستهل حضارة، وأنشأ حكومة، ورتـب لها الدواوين، ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتـخذ لها بيت مـال، ووصل أجزاءها بالبـريد، وحمى ثغورها بالمرابطين وصنع كل شيء فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه . وملاك النظم الحكومية كلها نـظام الشورى، الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام فى زمانه.

وجعل موسم الـحج موسمًا عاماً للـمراجعة والمحاسبـة ، واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها، وقد وضع لقواده دستور الحـرب، أو دستور الـزحف من الـجزيرة الـعربـية إلى تـخوم أعدائـها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده[١].

فى النص الســابق تتضح المستقبـلية عند عمر بن الخـطاب وكيف أنه وضع الأساس الـمتين والمسـتمر للدولة الإسـلامية، حتى تسـود وتقود، والحقيقـة أنه كان رضي الله تعالى عنه يعـي المستقبل تمامـا، ويخطط له بحكمة، وبدقة، وكان لا يترك شيئًا يجب أن يفعل للمستقبل إلا فعله[٢].

ولم يتركه للظروف والأقدار، كما يفـعل المسلمون الآن حين يتركون التدبير للمستقبل بحجة أن المستقبل بيد الله سبحانه وتعالى.

(١) عباس محمودو العقاد ـ عبقرية عمر ص ١٢٧ - ١٢٩ ط وزارة التربية والتعليم ١٩٦٩م.

(٢) فى هذا البحث يـتم رصد التوجه المستقبلـى «الاستراتيجى» فقط. أما من أراد أن يستـزيد فعليه الرجوع لكتب التاريخ والغزوات ليبصر الخطط فى كل غزوة على حدة.

وقفة مع جمع القرآن الكريم:

أردت من هذه الوقفة أن أظهر منهاج سيدنا عمر بن الخطاب الاستراتيجي في توجهه للمستقبل من غير أن يجعل من النصوص الدينية مانعًا لحركته وعقلا لعقله.

لقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظة للقرآن الكريم يسقطون في حروب الردة، وأدرك أن القرآن الكريم يجب أن يجمع لأنه دستور الأمة ومحور حركتها، وقوام أمرها، وأنه لو تداعت الحروب وسقط الحفظة، وضاع القرآن الكريم فإن الأمة ستضيع تبعًا له ولن يبقى لها أثر.

ويبقى سؤال كيف خطط عمر بن الخطاب لجمع القرآن الكريم ووافقه الخليفة أبو بكر وباقي الصحابة على ذلك؟ وهم يعلمون أن هذا مستقبل، وأن القرآن الكريم أشار الحق تعالى فيه إلى حفظه إذ قال ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩].

فكيف يحاولون ضمان شيء ضمنه الله تعالى، إن المسلم الآن يترك عمله الخاص من غير إتقان بحجة أن الأمور كلها بيد الله تعالى فلماذا لم يفعل عمر بن الخطاب مثل هذا ؟ لا شك أنهم كانوا يدركون هيمنة الله تعالى على كل شيء ولا يمنعهم ذلك الإدراك عن أداء رسالتهم

الإنسانية والقيام بدورهم البشري، ولـذلك كانت لهم السيـادة والقيادة، ويكتفى بهذه اللمحة السريعة عن المستقبلية عند سيدنا عمر بن الخطاب رضيَ الله تعالى عنه وأرضاه.

عثمان بن عفان ـ رضى الله تعالى عنه ـ:

يتحدث التاريخ بكثرة المشاكل والخلافات التي حدثت فى عـهد سيدنا عثمان بن عفان رضيَ الله تعـالى عنه ، ومـع كثرة المشاكل ـ إن صحت رواية المؤرخين ـ فإن سيدنا عثمان بن عفان ومعه صحابة رسول الله ﷺ لم يتركوا العمل للمستقبل لتنفيذ خطة رسـول الله ﷺ، أن يعم الإسلام العالم كله، وبعمومه يعم الخير ويكرم الإنسان.

ويحدثنا الإمام السيوطى في كتابه الطيب تاريخ الخلفاء عن الفتوح، والغزوات التى تمت فى عهد سيدنا عثمـان بن عفان رضي الله تعـالى عنه، بما يؤكد تأصيل فكرة المستقبلية عنده، وعند المسلمين في عهده رضي الله تعالى عنه فيقول عن أول سنة في خلافته الرشيدة.

وفي هذه السنة من خلافته ـ فتحت الرى ـ وكانت فتحت وانتقضت، وفيها فتح من الروم حصون كثيرة، وفيها ولي عثمان الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعزل المغيرة.

وفى سنة ست وعشرين : زاد عثمان فى المسجد الحرام ووسعه

واشترى أماكن للزيادة[1].

وفي هذه السنة فتحت سابور.

وفى سنة سبع وعشرين : غزا معاوية بن أبى سفيان قبرس «قبرص» فركب البحر بالجيوش، وكان معهم عبادة بن الصامت، وزوجته أم حرام، بنت ملحان الأنصارية فسقطت عن دابتها فماتت شهيدة هناك وكان النبيُّ ﷺ أخبرها بهذا الجيش ودعا لها بأن تكون منهم فدفنت بقبرص، وفي هذه السنة فتحت أرجان ودرابجرد، وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فغزا إفريقية فافتتحها سهلاً وجبلاً، فأصاب كل إنسان من الجيش ألف دينار وقيل ثلاثة آلاف دينار، ثم فتحت الأندلس فى هذا العام.

وفى سنة تسع وعشرين : فتحت اصطخر عنوة وفسادة وغير ذلك[2].

وفيها زاد عثمان فى مسجد المدينة ووسعه، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة، وسقفه بالساج، وجعل طوله ستين ومائة ذراع،

---

(١) الغزوات وفتح البلاد عمل استراتيجي لا شك فيه، بحسب ما يؤول إليه الحال، أو قل إنها أهداف مرحلية، تحقق بمجموعها الهدف الاستراتيجي العام لكن الزيادة في المسجد الحرام، وشراء أماكن حوله للزيادة فيه في المستقبل تؤكد تأصل فكر المستقبلية فى الجانب المدني مثل ما هو متأصل فى الجانب العسكري، وتؤكد أن المستقبلية عند الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانت نسيج الحياة.

(٢) بهذه العبارة الموجزة ـ أهمل الإمام السيوطى كثيراً من بطولات المسلمين وكدحهم للمستقبل، ويرى الإمام الطبرى أنه بجانب فتح اصطخر، وفسادة، فإنه قد تم فتح فارس، وافتتحها عبد الله ابن عامر، انظر تاريخ الطبرى ٤/ ٢٦٧ ط دار المعارف.

وعرضه خمسين ومائة ذراع.

وفى سنة ثلاثين : فتحت جور، وبلاد كثيرة من أرض خراسان، وفتحت نيسابور صلحًا، وقيل عنوة وطوس، وسرخس كلاهما صلحاً، وكذا ـ مرو، وبيهق، ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر الخراج على عثمان.

وأتاه المال من كل وجهة، حتى اتخذ له الخزائن(١)، وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بألف بدرة، في كل بدرة أربعة آلاف أوقية.

وفي سنة ثلاث وثلاثين : غزا عبد الله بن أبى سرح الحبشة.

وفي سنة خمس وثلاثين : كان مقتل عثمان.

ويذكر لسيدنا عثمان أنه أمر معاوية بن أبي سفيان فغزا قبرص، وركب البحر، لتعبر الدعوة الإسلامية البحر وتتجه نحو العالمية.

يقول الإمام السيوطى:

كان معاوية يلح على عمر بن الخطاب في غزوه قبرص، وركوب البحر لها ، فكتب إلى عمرو بن العاص، أن صف لي البحر وراكبه،

(١) فى هذه الفقرة تظهر ثمار المستقبلية، فهذه الأموال التى جاءت من كل مكان، إنما جاءت نتيجة سلسلة من الغزوات، التى بذل فيها الكثير من العرق، والدماء، والأرواح لنشر الدين الإسلامى والعدل الإسلامى والحكم الإسلامى وكل ذلك سيؤدى بالتبعية إلى مجيء الأموال من كل حدب وصوب لتعم السعادة بلاد الإسلام والبلاد المفتوحة على السواء ولا بد من التأكيد على أن جمع المال لم يكن من أهداف الغزو ولكنه جاء تبعًا له فلا يوجد فى العالم دولة فقيرة مسيطرة ولا دولة مسيطرة فقيرة.

فكتب إليه،:«إني رأيت خلقًا كثيراً يركبه خلق صغير، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أراع العقول، تزداد فى العقول قلة والسيئات كثرة، وهم فيه كدود على عدو، إن مال غرق، وإن نجا فرق، فلما قرأ عمر بن الخطاب الكتاب كتب إلى معاوية: والله لا أحمل فيه مسلما أبداً، قال ابن جرير : فغزا معاوية قبرس في أيام عثمان، فصالحه أهلها على الجزية»(١).

إن صحت هذه الرواية في توقف سيدنا عمر بن الخطاب عن غزو البحر خوفًا على المسلمين، وإقدام سيدنا عثمان بن عفان على ذلك، تكون هذه الفقرة خير ختام للمستقبلية عند سيدنا عثمان بن عفان، لأن غزو قبرص كان مرحلة من مراحل نشر الإسلام في أوروبا، انطلاقا من هذه الجزيرة، وكانت خطوة مرحلية لا بد منها، وهي نظرة كبيرة إلى المستقبل البعيد لكن يجب أن لا نعالج هذا النص بمفهوم الإمام السيوطي، ومن نقل عنهم من المؤرخين، لأن المستقبلية كانت هي القاسم المشترك عند صحابة رسول الله ﷺ على اختلاف مشاربهم وتفاوت قدراتهم فى القيادة ولم يكن ليغيب عن حاضر مؤسس الدولة الإسلامية عمر بن الخطاب، على أساس رسول الله ﷺ وأبي بكر، وأن غزو قبرص فيه نقل لنور الدعوة الإسلامية من مرحلتها المحلية إلى مرحلتها العالمية، ولكنه لم يَخَفْ من ركوب البحر كما تقول كتب التاريخ، وإنما كانت لديه أولويات،وأهداف مرحلية تسبق هذا الهدف

(١) الإمام السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ص ١٥٤ وما بعدها.

العظيم ولا بد أن تسبقه، ولا بد أن يترتب عليها، ولما جاء سيدنا عثمان ابن عفان، نظر إلى رقعة الدولة الإسلامية على خريطة الواقع، فوجدها ما زالت دون ما يراه لها في المستقبل، فقرر غزو قبرص، والانطلاق منها لما بعدها، وعلى هذا لا يكون هناك خلاف في الرؤية المستقبلية بين سيدنا عثمان بن عفان، وسيدنا عمر بن الخطاب، ويكون لكل منهما مستقبليته اليى تكمل المستقبلية عند الآخر، لأنهم كانوا ينظرون إلى دورهم فى دفع عجلة الإسلام، والتأسيس لدولته، على أن كل دور من هذه الأدوار دائرة تدور وتتلاشى ليتكون من هذه الدوائر المتلاشية والباقية في آن واحد دائرة الإسلام الكبرى والأبقى، ولو سلمنا مع الطبريّ بوجود خلاف فى الرؤية بين سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان فإنه لا يعدو أن يكون خلافا على أولويات المرحلية، وليس على أهداف المستقبلية، والنظر للتاريخ الإسلاميّ من هذه النافذة يجعله نسقًا واحدًا يسير حسب مراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذه الأمة المخرجة للناس.

على بن أبى طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

تولى سيدنا على بن أبى طالب الخلافة والفتن تحيط بالدولة الإسلامية من كل جانب، ولعل معظمها كان من صناعة بعض الحاقدين على دولة الإسلام والمنافقين الذين أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وفي فترة خلافته وما تلاها من سنين أو بالتحديد من سنة خمس وثلاثين إلى السنة التي تولى فيها معاوية الخلافة أو انفرد بها، وليس معنى هذا أن الغزو

توقف، وأن العمل للمستقبل توقـف، ولكن المؤرخ خاصة العربيّ يميل إلى ذكر الأحاديث الـتي تتغلف بالقـصص، وتكون مادة لتسلـية من يقرأ تاريخه، ومـع هذا فلن نعدم أن نجد فـي حياة سيدنا الإمام علـى ما يؤكد احتفاءه بالمستقبلية.

كانت أول مشكـلة عرضت على سيدنـا عليّ بن أبى طالب بعـد توليه الخلافة هي القصـاص من قتلة الخليفة عثمان بـن عفان رضي الله تعالى عنه ، وكان تصرفه فيها ينم عن رؤيته المستقبلية الواضحة.

يقول ابن جرير الطبرى:

واجتمـع إلى عليّ بعد مـا دخل إلى بيته طـلحة، والزبير فـى عدة من الصحابة، فقالوا يا عليُّ : إنا قـد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنـفسهم، فقال لهم: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هـم هؤلاء قد ثارت مـعهم عـبدانكم، وثـابت إليـهم أعرابكـم، وهم خلالكـم يسومونكم مـا شاءوا فهل ترون موضـعًا لقدرة على شـيء مما تريدون؟.

قالوا : لا . قـال : فلا والله لا أرى إلا رأيـا ترونه إن شاء الـله، إن هذا الأمر أمـر جاهليـة، وإن لهؤلاء القـوم مادة وذلك أن الشـيطان لم يـشرع شريعـة قط، فيبرح الأرض من أخـذ بها أبدًا، إن الناس مـن هذا الأمر إن حرك علـى أمور، فرقة تـرى ما ترون، وفرقـة ترى ما لا ترون، وفـرقة لا

ترى هـذا ولا هذا، حتـى يهدأ الـناس وتقـع القـلوب مواقـعها، وتـؤخذ الحقوق، فاهدؤوا عني، وانظروا إلى ما يأتيكم وعودوا(١).

إن من يريد أن يقف على المستقبلية في هذا النص فعليه أن يرجع إلى الظروف والملابسـات ، ويدرس الأحوال التي قيل فيها هـذا النص، لقد قتل عـثمان بن عـفان فيما يـشبه الثـورة، اجتمع للـقادمين مـن الأمصار، الأعراب، والعبيد الأعـراب من حول المدينة، والعبيد مـن داخل المدينة وأحكموا السيطرة على المدينة، وقتلوا الخليفة، وأصبح كبار الصحابة لا يمـلكون من أمـرهم شيـئًا فعبـيدهم جـيش معاون لـلقادمـين الثائـرين، والأعراب وهم مدد المدينة قد انضـموا إلى الثوار، ومع ذلك جاءوا إلى سيدنا عليّ يطالبونه بالقصاص، فحـدثهم حديث من ليس يقرأ المستقبل فحسـب بل حديث الـخبير به أيـضًا، فقال لهـم كيف أفرض الـقصاص عليهم وهم يمـلكوننا، ولا نملكهم، وهذه قاعدة صحـيحة أن من يحكم لا بد أن يملك، وفي نـفس الوقت أخبرهم أن الرأي العام فـي المدينة لم يتفق بعـد على شيء محدد ، إن الناس من هذا الأمـر إن حرك على أمور فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا.

فهذه رؤية نافـذة إلى المستقبل، ترتب أحـداثه ترتيبًا طبيعـيًا، ولو أتيح لسـيدنا علـي بن أبي طـالب نظامـاً مستـقراً في خـلافته، لأسدى لـدولة الإسلام أكبر الإنجازات في مستقبلها من خلال وعيه المستقبلي السديد،

(١) ابن جرير الطبري- تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٧.

ولكنه حاول أن يسبح بمركبه فى بحر من الفتن، فلم يصل إلى شاطئه الذي كان يراه من بعيد.

وإذا كانت هذه الفتن قد ألهت المسلمين عن الغزو أو ألهت كتاب التاريخ عن تسجيل ذلك، فإننا نلحظ رؤية مستقبلية أخرى للإمام علي بن أبى طالب في نظرته للضرائب التي تجبى من الناس، فقد نظر إليها نظرة مستقبلية فرأى أنها يجب أن تؤدى إلى عمارة الأرض، لا إلى خرابها فكان يكتب إلى الوالي من عماله :

تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ، من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن جلب الخراج بغيرعمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة في الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر(١).

في الفقرة السابقة رؤية مستقبلية في الاقتصاد لأنه رضى الله تعالى عنه ينظر إلى عمارة الأرض التي سيترتب عليها تدفق الخراج، ولا ينظر إلى كمية الخراج نفسها، ويقول :

(١) عبقرية على : عباس العقاد ص ١٢٢، وانظر أيضًا نهج البلاغة.

«وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج».

وهذا ما يسمى في عصرنا الحاضر بالاستثمار للمستقبل وفي كلماته القليلة لعماله أساس للتخطيط المستقبلي في حقل الاقتصاد، وعمارة الأرض، ويلحظ هذا التخطيط كل باحث عن المستقبلية من غير عناء ولا مشقة.

معاوية بن أبى سفيان - رضي الله تعالى عنه -:

وعلى درب الصحابة الكرام يسير سيدنا معاوية بن أبي سفيان في فتح البلاد، وإفساح رقعة الدولة الإسلامية ومد سلطانها في كل الاتجاهات، وبقي عشرين سنة لا ينازعه أحد، فقد ولي الخلافة بعد أن تنازل له الحسن بن علي رضى الله تعالى عنهما [(١)]. في سنة إحدى وأربعين وظل يغزو ويفتح طوال هذه المدة.

ففي سنة ثلاث وأربعين ـ فتحت الخرج، وغيرها من بلاد سجستان وودان من برقة، وكور من بلاد السودان.

وفي سنة خمس وأربعين : فتحت القيقان.

وفي سنة خمسين : فتحت قوهستان عنوة، وفيها دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد[(٢)].

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ.،

(١) الإمام السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠.

وعلى هـذه السنة سـار الخلفـاء من بعد مـعاوية لأن بنـاء المستـقبل، وتأميـن الحاضر لـلمسلـمين كان من أهـم أدوار الحكام الـمسلمـين في عصور التفوق الإسلامي، ولكن من يطـالع التاريخ الإسلامي يجده يركز على الـخلافات التي نشـبت بين من يريـدون الحكم، أو الاستيـلاء على السلطة ويجب أن لا ينظر إلى التاريخ الإسلاميّ على أن ما فيه مسلمات، لأن كتاب التاريخ كـانوا ينتمون إلى كل التيارات المـتصارعة، وحاولت كل طائفة مـنهم تشويه تاريخ الطـائفة الأخرى وإلصاق العجـز بها، لكن مـن يراجـع تقـدم الدولـة الإسـلاميـة في كـل الـمجـالات من مـنظـور المـذخورية، ويتـفحص الـحضارة الإسلامـية، يعـلم أن هذه الخـلافات كانت محدودة، وأن بناء الدولة الإسلامية لم يتوقف إلا قليلا، ويجب أن يدرس التاريخ الإسـلامى من خلال الإفراز الحضاريّ للـدولة الإسلامية لأن كثيراً من الأخـطاء في التاريخ تأخذ مـصداقيتها من أقدمـيتها، أو من زمانيتهـا، ترى فى صفحات التاريخ أحكـامًا مرتجلة يتلقّفُـها فم من فم، ويتوارثها جيل عن جـيل، ويتخذها السامعون قضية مسـلمة، مفروغًا من بحـثها والاستـدلال عليهـا وهي في الواقـع لم تعرض قـط على البـحث والاستـدلال ولم تـجاوز أن تـكون شـبهـة وافقـت ظواهـر الأحوال ثـم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال[1].

(١) الأستاذ عباس العقاد ـ عبقرية على ص ٩٠ ط دار المعارف.

ولو اتسع المجال لسردنا هنا كيف أسس الأوائل دولة الإسلام على قاعدة التخطيط الدقيق، والأعمال الهادفة ولكن هذه الدراسة تركز على إثبات المستقبلية عند المسلمين ولا تركز على استقصائها، فحسب المرء أن يخرج من مراجعة هذه الدراسة، وهو يعتقد بأن التخطيط والنظر للمستقبل البعيد جزء من عقيدة المسلمين، في خلافتهم لله تعالى في الأرض، وليس في هذا التخطيط نقص في الإيمان، أو وهن في العقيدة.



الفهرس

* * *